وضوح البيان بتعظيم قَدْر النبيّ العدنان ﷺ

التوحيد

مجلة إسلامية ثقافية شهرية تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية
العدد ٥٩٣ السنة الخمسون - جمادى الأولى ١٤٤٢ هـ
الثمن ٥ جنيهات

مصادر المعرفة في الإسلام

زواج المسلمة من غير المسلم

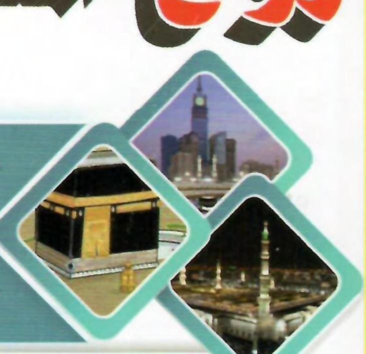

كتاب عربي علّم العالم

أركان النجاة .. حفظ الذمام والأخذ بالزمام

الأخلاق والقيم حصن الأمم

بسم الله الرحمن الرحيم

فاعلم أنه لا إله إلا الله

رئيس مجلس الإدارة

أ.د. عبد الله شاكر الجنيدي

المشرف العام

د. عبد العظيم بدوي

مستشار التحرير

جمال سعد حاتم

نائب المشرف العام

د. مرزوق محمد مرزوق

اللجنة العلمية

د. جمال عبد الرحمن

معاوية محمد هيكل

د. محمد عبد العزيز السيد

الاشتراك السنوي

١- في الداخل ١٠٠ جنيه توضع في حساب المجلة رقم/١٩١٥٩٠ ببنك فيصل الإسلامي مع إرسال قسيمة الإيداع على فاكس المجلة رقم/ ٠٢٢٣٩٣٠٦٦٢.

٢- في الخارج ٤٠ دولاراً أو ٢٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما

920 جنيهاً

ثمن الكرتونة للأفراد والهيئات والمؤسسات داخل مصر ٣٠٠ دولار خارج مصر شاملة سعر الشحن.

السلام عليكم

شقاوة المخالفين للرسول عليه الصلاة والسلام

تزوّج رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة؛ ذكر أهل السير أنها استعاذت بالله منه فقال لها: «لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك». وذكر بعضهم أنها لما نزلت آية التخيير تُخيِّر نساء النبي بين الله ورسوله والدار الآخرة، وبين الحياة الدنيا وزينتها مع التسريح والطلاق، فاختار جميع نسائه الله ورسوله، إلا هي فقد اختارت الدنيا وقالت: أرجع إلى قومي، فطلّقها النبي صلى الله عليه وسلم وفارقها، فكانت بعد ذلك تلقط البعر، وتقول: أنا الشقية: اخترت الدنيا.

فلمَّا كانَ في زمن عمر رَضي الله عَنهُ وُجدتْ تلقط البعر، وَتقول: اخْتَرْتَ الدُّنْيَا على الْآخرة، فَلَا دنيا وَلَا آخرَة. وَتقول: إنَّهَا الشقية. فذُهلتْ وذهب عقلها، وَكَانَت تلقط البعر وتستأذن على أَزوَاج النَّبي صلى الله عَلَيْه وَسلم وتسألهن وَتقول: أنا الشقية، فَكَانَت ذَاهبَة الْعقل حَتَّى مَاتَت.

«فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»(النور:٦٣). كما قال الله تعالى. وليعلم كل من فرّط في جنب الله واستكبر على هدى الله ورسوله، إيثارًا للدنيا وزينتها واختيارًا لها على الآخرة، أنه لن يخرج منها إلا بما هو أقل من بعر البعير.

التحرير

بريد القراء

«بريد القراء»، أول باب تفاعلي إعلامي منذ القرن الـ ١٨

عزيزي قارئ مجلة التوحيد:

قبل أكثر من قرنين من الزمان كان باب التفاعل الوحيد بين الصحف وبين القراء، هو باب «بريد القراء».

وتطور الوضع الآن إلى رسائل إلكترونية ترسل إلى مواقع الصحف الإلكترونية للتعقيب على المقالات والأخبار مباشرة، بالإضافة إلى البريد العادي.

وتفعيلاً للتواصل بين مجلة التوحيد والقراء الكرام، فإنه تتاح نافذة «بريد القراء» في مجلة التوحيد، فيرجى لمن يرغب بالمشاركة الالتزام بالأصول الصحافية بعدم التعدي أو اتهام أشخاص بلا دليل، وينبغي أن تكون الرسالة ما بين ٢٠٠ و ٥٠٠ كلمة بحد أقصى، وسيتم إهمال الرسائل التي تأتي بلا توقيع أو تحتوي على لغة بذيئة لا تصلح للنشر. والله الموفق.

٨

٢١

٣٢

٤١

افتتاحية العدد ٢
باب التفسير ٥
الآثار السلبية للبخل ١٢
فقه المرأة في النكاح ١٤
باب السنة ١٧
خُلق عزيز ٢٥
معركة أجنادين ٢٨
واحة التوحيد ٣٦
دراسات شرعية ٣٨
مصادر المعرفة في الإسلام ٤٤
الهجرة هجرتان ٤٦
كتاب عربي علم العالم ٤٨
الأسرة المسلمة ٥٠
تحذير الداعية من القصص الواهية ٥٣
قرائن اللغة والنقل والعقل ٥٧
صلاة الاستسقاء ٦١
مقالات في معاني القراءات ٦٤
دراسات قرآنية ٦٧
الأخلاق والقيم حصن الأمم ٧٠

صاحبة الامتياز
جمعية أنصار السنة المحمدية

رئيس التحرير:
مصطفى خليل أبو المعاطي

رئيس التحرير التنفيذي:
حسين عطا القراط

مدير التحرير
إبراهيم رفعت أبو موته

الإخراج الصحفي:
أحمد رجب محمد
محمد محمود فتحي

ثمن النسخة

مصر ٥٠٠ قرش ، السعودية ٦ ريالات ، الإمارات ٦ دراهم ، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي ،الأردن ٥٠٠ فلس، قطر٦ ريالات ، عمان نصف ريال عماني ،أمريكا دولاران ، أوروبا ٢ يورو

إدارة التحرير

٨ شارع قولة عابدين ـ القاهرة
ت:٢٣٩٣٦٥١٧ ـ فاكس :٢٣٩٣٠٦٦٢

البريد الإلكتروني

MGTAWHEED@HOTMAIL.COM

افتتاحية العدد

انحراف البشرية عن التوحيد وأسبابه

(٣)

الرئيس العام

د. عبد الله شاكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين. وبعد: فقد تحدثت فيما مضى عن خطورة الغلو وبيَّنت أنه سبب رئيسي في انحراف البشرية عن التوحيد، وذكرت بعض الآيات والأحاديث المصرِّحة بالنهي عنه، وأواصل في هذا اللقاء الكلام حول هذا الموضوع، فأقول وبالله التوفيق:

الغلو في الصالحين:

إن أئمة أهل العلم من الراسخين ومنهم الأئمة الأربعة المتبوعين حذَروا من الغلو في الصالحين، وسأذكر هنا طرفًا من ذلك ليطمئن القارئ إلى صحة ما أقول، ويتبين له أن هذا ليس مذهبًا خاصًّا بطائفة من الناس، وإنما هو شرع ربَ العالمين.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «كره -والله تعالى أعلم- أن يُعظَم أحد من المسلمين، يعني يُتَّخَذ قبره مسجدًا». (الأم: ١/٤٩٦).

والمراد بالكراهة المذكورة في كلام الشافعي الكراهة التحريمية؛ لأن من مذهبه أن الأصل في النهي التحريم، إلا ما دل الدليل على أنه لمعنى آخر، كما صرح بذلك في رسالته "جماع العلم" ص١٢٥.

ويؤكد ذلك أن الفقيه ابن حجر الهيتمي الشافعي عدَّ هذه الأمور من الكبائر، وهذا يدل على تحريمها، قال رحمه الله: «الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون: اتخاذ القبور مساجد، وإيُقاد السُرُج عليه، واتخاذها أوثانًا، والطواف بها، واستلامها، والصلاة إليها»، ثم ساق عدة أحاديث فيها النهي الصريح عن ذلك، ثم

قال: تنبيه: عدَ هذه الستة من الكبائر وقع في كلام بعض الشافعية، وكأنه أخذ ذلك مما ذكرته من هذه الأحاديث، ووجه اتخاذ القبر منها واضح؛ لأنه لعن من فعل ذلك بقبور أنبيائه، وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه شرَ الخلق عند الله يوم القيامة، ففيه تحذير لنا كما في رواية «يحذر ما صنعوا»، أي: يحذر أمته بقوله لهم ذلك من أن يصنعوا صنع أولئك فيُلعَنوا كما لُعنوا، واتخاذ القبر مسجدًا معناه: الصلاة عليه أو إليه». (الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج١/ ٦٣٧).

وكما قال الشافعية بالكراهة التحريمية، قال الأحناف. قال الإمام محمد تلميذ الإمام أبي حنيفة: «لا نرى أن يُزاد على ما خرج من القبر، ونكره أن يُجَصَص أو يُطيَن، أو يُجْعل عنده مسجدًا». (انظر كتابه «الآثار» ص٤٥).

كما صرح المالكية بمنع بناء المساجد على القبور. قال القرطبي رحمه الله: عند تفسير قوله تعالى: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا» (الكهف: ٢١). فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها إلى غير ذلك ما تضمنته السُنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز، لما روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج". ثم ساق بعض الأحاديث التي فيها تحذير من تعلية القبر، وعقَب عليها بقوله: «ويبقى القبر ما يُعرف به ويُحترم، وذلك صفة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقبر صاحبيه رضي الله عنهما، على ما ذكر مالك في الموطأ». (تفسير القرطبي، ج٦/٣٩٩٦. من طبعة الشعب).

كما ذهب الحنابلة إلى التحريم، قال ابن تيمية رحمه الله: «ويحرم الإسراج على القبور، واتخاذ المساجد عليها وبينها، ولا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين». (الاختيارات العلمية: ٥٢).

وقد تتابع أئمة أهل العلم على النهي عن ذلك والتحذير منه؛ متبعين الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك، وهذا الإمام الشوكاني رحمه الله يسوق بعضًا من الأحاديث الواردة في النهي عن بناء المساجد على القبور ووضع القباب عليها، ثم يقول: «ولا ريب أن السبب الأعظم الذي نشأ معه هذا الاعتقاد في الأموات: هو ما زيَنه الشيطان للناس من رفع القبور ووضع الستور عليها وتجصيصها وتزيينها بأبلغ زينة وتحسينها بأكمل تحسين؛ فإن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بُنيَتْ عليه قبة فدخلها ونظر على القبور الستور الرائعة والسرج المتلألئة، ووضعت حوله مجامير الطيب، فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيمًا لذلك القبر...». (انظر رسالته شرح الصدور في تحريم رفع القبور ضمن مجموعة الرسائل المنبرية ج١/٧٢).

وقد قال بذلك علماؤنا في الأزهر، وتبنت دار الإفتاء المصرية هذا القول وأفتوا به هذه الأمة، فهذا فضيلة الإمام الشيخ عبد المجيد سليم رحمه الله يجيب على سؤال ورد إليه عن حكم دفن رجل في قبر في مسجد فقال: «إن الدفن في المسجد إخراج لجزء من المسجد مما جُعل له من صلاة المكتوبات وتوابعها من النفل والذكر وتدريس العلم، وذلك غير جائز شرعًا؛ ولأن اتخاذ قبر في المسجد على الوجه الوارد في السؤال يؤدي إلى الصلاة إلى هذا القبر أو عنده، وقد وردت أحاديث كثيرة دالة على حظر ذلك». (فتاوى دار الإفتاء المصرية، فتوى رقم (٣١٩) بتاريخ ١٦ جمادى الأولى عام ١٣٥٩هـ. وبمثله أفتى الإمام الأكبر الشيخ/ محمود شلتوت كما في كتابه الفتاوى ص٨٨-٩٠).

هذا وقد أدى تشييد القبور والبناء عليها إلى مفاسد عظيمة منها: التمسح بالقبور وتقبيلها والتبرك بها ودعاء أصحابها، وهذا كله واقع ومخالف لما جاء به دين الإسلام، وليس له أصل في شريعة المسلمين، والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهم أعلم الناس بالتنزيل لم يأت عن أحد منهم أنه قبّل حجرًا أو قبرًا، بل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قبّل الحجر الأسود قال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع،

ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك». (صحيح البخاري: ١٥٩٧).

ولما رأى عبد الله بن الزبير الناس يمسحون المقام نهاهم، وقال: «إنكم لم تؤمروا بالمسح، وإنما أمرتم بالصلاة». (مصنف عبد الرزاق، ج٥، ص٤٩).

وقال ابن الحاج رحمه الله: «فترى من لا علم عنده يطوف بالقبر الشريف كما يطوف بالكعبة البيت الحرام، ويتمسح به ويُقبّله، ويلقون عليه مناديلهم وثيابهم، يقصدون به التبرك، وذلك كله من البدع؛ لأن التبرك إنما يكون بالاتباع له عليه الصلاة والسلام، وما كان سبب عبادة الجاهلية للأصنام إلا من هذا الباب». (المدخل: ج١، ص٢٦٣).

وقال النووي رحمه الله: "وقال الإمام أبو الحسن محمد بن مرزوق الزعفراني- وكان من الفقهاء المحققين- في كتابه الجنائز: «ولا يستلم القبر بيده ولا يُقبّله، قال: وعلى هذا مضت السنة». قال أبو الحسن: واستلام القبور وتقبيلها الذي يفعله العوام الآن من المبتدعات المنكرة شرعًا ينبغي تجنُّب فعله وينهى فاعله، وقال الفقهاء المتبحرون الخراسانيون: المستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً وجه الميت يُسلِّم ولا يمسح القبر ولا يُقبّله ولا يمسّه؛ فإن ذلك عادة النصارى، قال: وما ذكروه صحيح، لأنه قد صح النهي عن تعظيم القبور، ولأنه إذا لم يستحب استلام الركنين الشاميين من أركان الكعبة لكونه لم يسن على استحباب استلام الركنين الآخرين، فلئلا لا يستحب من القبور أولى. والله أعلم. (المجموع: ج٥، ص٣١١).

وقال الطرطوشي: «ولا يتمسح بقبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا يمسح كذلك المنبر». (الحوادث والبدع، ص١٥٦).

قلت: إذا كان هذا كلام أهل العلم في قبر خير البشر صلى الله عليه وسلم فما بالنا بقبر غيره؟!

اتباع الأسلاف وتقليد الآباء والأجداد:

كان تقليد الآباء عقبة عاتية تقف في وجه دعوات الأنبياء والمرسلين، والناظر في قصص الأنبياء يجد هذا واضحًا، انظر مثلاً في قول قوم إبراهيم له حين سفّه عبادتهم للأصنام ردوا عليه بقولهم: «قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ» (الأنبياء: ٥٣). وقد رد عليهم إبراهيم عليه السلام مبينًا لهم أن من اتبعوهم وقلدوهم كانوا في ضلال مبين، كما قال القرآن الكريم: «قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (الأنبياء: ٥٤). وقد تواصلت سلسلة الضلال هذه لدى المشركين عبر القرون، حتى وصلت إلى مشركي مكة الذين اعترضوا على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والأمر بعبادة الله وحده؛ بما كان عليه آباؤهم من الكفر وعبادة الأوثان، كما قال تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة: ١٧٠).

يقول ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: «اتّبِعوا ما أنزل اللّه» على رسوله صلى الله عليه وسلم واتركوا ما أنتم فيه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: «بَلْ نَتّبِعُ ما ألفَيْنا» أي: وجدنا عليه آباءنا، أي: من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكرًا عليهم: «أوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ» أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم «لا يَعْقِلونَ شيئًا ولا يَهْتَدُونَ» أي: ليس لهم فهم ولا هداية. (تفسير ابن كثير، ج١، ص٢٨٩).

فهؤلاء المشركون اكتفوا بتقليد الآباء، وكان ذلك سببًا في تركهم وحربهم لدعوة الأنبياء، مع أن آباءهم كانوا من أجهل الناس وأشدهم ضلالاً، ويلاحظ أن هذه الآية جاءت عقب تحذير القرآن الكريم من اتباع خطوات الشياطين؛ تنبيهًا على أنه لا فرق بين وساوس الشياطين وبين متابعة السابقين؛ لأن كلا يؤدي إلى الضلال المبين، والواجب على الأمة اتباع ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين، وفي هذا الفوز والفلاح، كما قال رب العالمين: «وإن تُطيعُوهُ تَهْتَدُوا».

وأسأل الله تعالى أن يرزقنا التوحيد والاتباع.

والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سُورَةُ الْحُجُرَات

(٩)

إعداد د. عبد العظيم بدوي

قال الله تعالى:

«وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ» (الحجرات: ١٢).

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، ما يزال الحديث متصلاً عن تفسير آيات سورة الحجرات، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

وُجُوبُ التَّوْبَة

تَحَدَّثْنَا عَنْ الآيَتَيْنِ: الحَادِيَةَ عَشْرَةَ، وَالثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ سُورَةِ الحُجُرَاتِ، وَقُلْنَا: إنهما تَضَمَّنَتَا النَّهْيَ عَنْ ذَاكَ السُّدَاسِيِّ الجَاهِلِيِّ: السُّخْرِيَةُ، وَاللَّمْزُ، وَالتَّنَابُزُ بالأَلْقَابِ، وَالظَّنُّ السَّيِّئُ، وَالتَّجَسُّسُ، وَالغِيبَةُ.

وَمِمَّا يَلْفِتُ النَّظَرَ فِي الآيَتَيْنِ أَنَّ الأُولَى مِنْهُمَا خُتِمَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ» (الحجرات: ١١)، وَأَنَّ الثَّانِيَةَ خُتِمَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ» (الحجرات: ١٢). فَخِتَامُ الأُولَى تَضَمَّنَ التَّهْدِيدَ لِمَنْ اقْتَرَفَ مِنَ السُّخْرِيَةِ، أَوِ اللَّمْزِ، أَوِ التَّنَابُزِ بِالأَلْقَابِ، شَيْئًا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ، بِالزَّجِّ بِهِ فِي عِدَادِ الظَّالِمِينَ. وَأَمَّا خِتَامُ الثَّانِيَةِ فَإِنَّهُ قَدْ أَشَارَ إِشَارَةً لَطِيفَةً إِلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ، وَأَنَّ عَلَى كُلِّ مَنِ اقْتَرَفَ مِنَ الظَّنِّ السَّيِّئِ أَوِ التَّجَسُّسِ، أَوِ الغِيبَةِ شَيْئًا أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرَهُ، فَإِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ. فَالتَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ عَلَى مَنِ اقْتَرَفَ مِنْ ذَاكَ السُّدَاسِيِّ شَيْئًا أَوْ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ القَبَائِحِ وَالمُنْكَرَاتِ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالتَّوْبَةِ، وَالأَمْرُ لِلإِيجَابِ، كَمَا يَقُولُ العُلَمَاءُ، قَالَ تَعَالَى: «وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (النور: ٣١)، وَقَالَ تَعَالَى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا» (التحريم: ٨).

الحَثُّ عَلَى التَّوْبَة:

وَلَقَدْ كَانَ صلى الله عليه وسلم يَأْمُرُ بِالتَّوْبَةِ، وَيَحُثُّ عَلَيْهَا، وَيُرَغِّبُ فِيهَا، فَكَانَ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللهِ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ» (صحيح مسلم: ٢٧٠٢). فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَهُ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَإِنَّ غَيْرَهُ أَوْلَى بِالاسْتِغْفَارِ

والتَّوبة.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حثَّ أصحابه على التوبة بيَّن لهم مدى فضل الله عز وجل، وسعة رحمته، وأنه سبحانه لا يبالي بالغفران لعبده وإن بلغت ذنوبه عنان السماء، فكان صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل حتَّى تطلع الشمس من مغربها» (صحيح مسلم: ٢٧٥٩). ويقول صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر» (صحيح سنن الترمذي: ٣٥٣٧).

وكان صلى الله عليه وسلم يُخبرهم أنَّ الله يفرحُ بتوبة عبده حين يتوب إليه، فيقول: «للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوبُ إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامُه وشرابُه فأيس منها فأتى شجرةً فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عندهُ فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح» (صحيح مسلم ٢٧٤٧).

لا تقنطوا من رحمة الله:

إنَّ رجالاً أسرفوا على أنفسهم في المعاصي والذنوب، ربما استيقظ ضميرهم، ففكروا في التوبة، فجاءهم الشيطان فقنَّطهم من رحمة الله، فرجعوا عمَّا همُّوا به من التوبة والإنابة إلى الله. لهؤلاء نذكر هذا الحديث:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا مُحمَّدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا إنَّ الذي تقول وتدعو إليه لحسنٌ لو تُخبرنا أنَّ لما عملنا كفارةً. فنزل «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا» (الفرقان: ٦٨-٧٠)، ونزل «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (الزمر: ٥٣)» (صحيح البخاري ٤٨١٠).

فيا من أسرفوا على أنفسهم في الذنوب والمعاصي: «لا تقنطوا من رحمة الله»، إنَّ الله قد دعا إلى التوبة من قال عُزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، ومن قال يدُ الله مغلولة، ومن قال إنَّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياء، دعاهم جميعًا إلى التوبة، فقال تعالى: «أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (المائدة: ٧٤).

ولعلَّ مما يبعثُ في نفوس القانطين الرجاء والأمل هذا الحديث:

عن أبي سعيد الخُدريّ رضي الله عنه أنَّ نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفسًا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعةً وتسعين نفسًا فهل له من توبة فقال لا. فقتله فكمَّل به مائة ثمَّ سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال إنَّه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإنَّ بها

أُناسًا يَعْبُدونَ اللهَ فاعْبُد اللهَ معهمْ ولا ترجعْ إلى أرضكَ فإنَّها أرضُ سوءٍ. فانْطلقَ حتى إذا نصفَ الطريقَ أتاهُ الموتُ فاختصمتْ فيه ملائكةُ الرَّحمةِ وملائكةُ العذابِ فقالتْ ملائكةُ الرَّحمةِ جاءَ تائبًا مُقبلاً بقلبهِ إلى اللهِ. وقالتْ ملائكةُ العذابِ إنَّهُ لم يعملْ خيرًا قطُّ. فأتاهمْ ملكٌ في صورةِ آدميٍّ فجعلوهُ بينَهمْ فقال قيسوا ما بينَ الأرضينِ فإلى أيَّتهما كان أدنى فهوَ له. فقاسوهُ فوجدوهُ أدنى إلى الأرضِ التي أرادَ فقبضتْهُ ملائكةُ الرَّحمةِ» (صحيح البخاري ٣٤٧٠). قالَ قتادةُ رحمهُ اللهُ: فقالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ: ذكرَ لنا أنَّهُ لمَّا أتاهُ الموتُ نأى بصدرِه.

حقيقة التوبة:

لكنَّ اللهَ تعالى حينَ أمرَ بالتَّوبةِ وصفَها بوصفٍ، لا تُقبلُ إذا لم تتَّصفْ بهِ، فقالَ تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا» (التحريم:٨).

في رياض الصالحين: ١٠، الجامع لأحكام القرآن: ٥/٩١

قالَ العلماءُ رحمهمُ اللهُ: إنَّ شروطَ التَّوبةِ النَّصوحِ هي:

أحدُها: أنْ يُقلعَ عنِ المعصيةِ. فلا يجوزُ أنْ يقولَ العبدُ: تُبتُ إلى اللهِ، وهوَ مقيمٌ على الذنبِ.

الثاني: أنْ يندمَ على فعلِها.

الثالثُ: أنْ يعزمَ أنْ لا يعودَ إليها أبداً.

الرَّابعُ: أنْ يتوبَ إلى اللهِ وهوَ في كاملِ صحَّتهِ وقوَّتهِ، ولا يؤخِّرَ، حتى إذا جاءَهُ الموتُ قالَ: تُبتُ إلى اللهِ، فإنَّ التوبةَ في هذهِ السَّاعةِ لا تُقبلُ.

قالَ تعالى: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (النساء: ١٧-١٨).

الخامسُ: إنْ كانَ الذَّنبُ مُتعلِّقًا بحقوقِ الآدميِّينَ أنْ يردَّ الحقوقَ إلى أهلِها إنِ استطاعَ، أوْ يستحلَّهمْ إنْ أمكنَ، ما لمْ يترتَّبْ على استحلالِهمْ مفسدةٌ، فإنْ ترتَّبَ على استحلالِهمْ مفسدةٌ، فعليهِ أنْ يتوبَ فيما بينَهُ وبينَ اللهِ، وأنْ يُكثرَ منَ الحسناتِ، حتى يستوفيَ منهُ أصحابُ الحقوقِ يومَ القيامةِ، كما أخبرَ النبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ في قولِهِ: «منْ كانتْ لهُ مظلمةٌ لأحدٍ منْ عرضهِ أوْ شيءٍ فليتحلَّلهُ منهُ اليومَ، قبلَ أنْ لا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ، إنْ كانَ لهُ عملٌ صالحٌ أُخذَ منهُ بقدرِ مظلمتهِ، وإنْ لمْ تكنْ لهُ حسناتٌ أُخذَ منْ سيئاتِ صاحبهِ فحُملَ عليهِ» (صحيح البخاري ٢٤٤٩).

نصيحة للتائبين:

وأخيرًا إلى العصاةِ والمذنبينَ: إذا منَّ اللهُ عليكمْ بالتَّوبةِ فعليكمْ بهاتينِ النَّصيحتينِ:

الأولى: أنْ تُغيِّروا البيئةَ التي عشتمْ فيها قبلَ التَّوبةِ، فإنَّ استمرارَكمْ في صُحبةِ أهلِ السُّوءِ لا يُساعدُكمْ على الثَّباتِ على التَّوبةِ، بلْ يحملُكمْ على الانتكاسِ والعودةِ إلى الذُّنوبِ، ولذا قالَ العالمُ للقاتلِ: «انطلقْ إلى أرضِ كذا وكذا فإنَّ بها أُناسًا يعبدونَ اللهَ فاعبدِ اللهَ معهمْ ولا ترجعْ إلى أرضكَ فإنَّها أرضُ سوءٍ».

الثانيةُ: عليكمْ بالإكثارِ منَ الأعمالِ الصَّالحةِ، حتى تُكفَّرَ عنكمْ ذُنوبُكمُ الماضيةُ، قالَ تعالى: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» (هود: ١١٤)، وقالَ تعالى: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ» (طه: ٨٢).

وللحديثِ بقيةٌ إنْ شاءَ اللهُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

زواج المسلمة من غير المسلم

إعداد **د/ محمد عبد العزيز**

«ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ① قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ② مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا» (الكهف: ١ - ٣)، والصلاة والسلام على خير خلقه وخاتم رسله وامام أنبيائه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى من سار على هديه واتبع سنته إلى يوم الدين، وبعد:

فإن التهجم على ثوابت الشريعة ومحكماتها صار ديدنًا لبعض المتسلقين ومروّجي الشبهات في هذه الأيام: إما جهلاً، وإما عنادًا وكذبًا، فيحسن بنا قبل مناقشتهم وبيان الحكم الشرعي فيما أثاروه بيان ثلاثة من أعظم المحرمات التي يقع فيها هؤلاء وأمثالهم، وهي:

المحرم الأول: القول على الله بغير علم: فإنه من أعظم الذنوب التي يُعصى الله بها، حتى إن الله تعالى قرنه بالشرك، قال تعالى: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (الأعراف: ٣٣).

قال ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين (١/٣٨٧): «المحرمات نوعان:

- محرم لذاته لا يباحِ بحال.
- ومحرم تحريمًا عارضا في وقت دون وقت.

قال الله تعالى في المحرم لذاته: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» (الأعراف: ٣٣)، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: «وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ» (الأعراف: ٣٣)، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: «وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا» (الأعراف: ٣٣)، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: «وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (الأعراف: ٣٣).

فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثمًا، فإنه يتضمن:

- الكذب على الله.
- ونسبته إلى ما لا يليق به.
- وتغيير دينه وتبديله.
- ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه.
- وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه.
- وعداوة من والاه وموالاة من عاداه.
- وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه.

> كل مسألة يُقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين؛ فإنها مما بيَّن الله فيه الهدى، ومخالف مثل هذا الإجماع يكفر، كما يكفر مخالف النص البيِّن.

. ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله».

المحرم الثاني: الكذب على الله تعالى بتحليل ما حرَّم أو بتحريم ما أحلَّ؛ قال تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (النحل: ١١٦، ١١٧).

المحرم الثالث: رد المعلوم من الدين بالضرورة، ولعله من أعظمها ذنبًا؛ ذلك أن حكم الله فيه لا يخفى على أحد، ومن المعلومات ضرورة المسائل المجمع عليها من العامة قبل الخاصة.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٣٩): «كل ما أجمعوا عليه فلا بدَّ أن يكون فيه نصٌّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فكل مسألة يُقطع فيها بالإجماع وبانتفاء المنازع من المؤمنين؛ فإنها مما بيَّن الله فيه الهدى، ومخالف مثل هذا الإجماع يكفر، كما يكفر مخالف النص البيِّن.

وأما إذا كان يظن الإجماع، ولا يقطع به؛ فهنا قد لا يقطع أيضًا بأنها مما تبين فيه الهدى من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومخالف مثل هذا الإجماع قد لا يكفر؛ بل قد يكون ظن الإجماع خطأً، والصواب في خلاف هذا القول.

وهذا هو فصل الخطاب فيما يكفر به من مخالفة الإجماع، وما لا يكفر».

وأنا أكتفي بهذه الإشارة لوضوح ما سبق والتسليم به.

وأما المسألة المثارة: فهي ما ادعته بعضهن: من أنه لا نص في القرآن على تحريم تزوج المسلمة من الكتابي- اليهودي، والنصراني- إذا لم يكرهها على تغيير دينها ولم يمنعها من أداء شعائرها.

ولما سألتها المذيعة: والأبناء يكونوا على دين من؟! أجابت: على دين أبيهم.

وتقرير المسألة على ما قررته هذه المتسلقة وقوع فيما سبق.

وأما حكم زواج المسلمة من غير المسلم سواء كان مشركًا أو كتابيًا فهو التحريم، وإذا وقع فهو باطل إجماعًا.

أولاً: الأدلة من كتاب الله تعالى على تحريم زواج المسلمة من غير المسلم:

١- قوله تعالى: «وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (سورة البقرة: ٢٢١).

وقوله تعالى: «ولا تُنكحوا المشركين» لفظ عام يشمل كل مشرك سواء كان وثنيًا أو كتابيًا بغير خلاف بين الأمة.

قال الإمام ابن جرير الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (٤/ ٣٧٠): «يعني تعالى ذكره بذلك: أن الله قد حرَّم على المؤمنات أن ينكحن مشركا كائنًا من كان المشرك، ومن أيِّ أصناف الشرك كان. فلا تنكحوهنَّ أيها المؤمنون منهم، فإنَّ ذلك حرام عليكم؛ ولأن تزوجوهن من عبد مؤمن مصدق بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، خير لكم من أن تزوجوهن من حُرٍّ مشرك، ولو شرُف نسبه وكرم أصله، وإن أعجبكم حسبه ونسبه».

وقال ابن كثير (١/ ٥٨٤): «قال تعالى: «ولَعبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مُشرك ولو أعجبَكم» أي: ولرجل مؤمن-ولو كان عبدًا حبشيًا- خير من مشرك، وإن كان رئيسًا شريفًا «أولئك يدعُون إلى النار» أي: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة «والله يدعُو إلى الجنَّة والمغفرة بإذنه» أي: بشرعه وما أمر به وما نهى عنه «ويُبيِّن آياته للنَّاس لعلَّهم يتذكَّرون»».

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٦/ ٤١٣): «أما قوله تعالى: «ولا تُنكحوا المشركين حتى يُؤمنوا» فلا خلاف هاهنا أن المراد به: الكل، وأن المؤمنة لا يحل تزويجها من الكافر ألبتة على اختلاف أنواع الكفرة».

وقال الإمام الكاساني في بدائع الصنائع (٢/ ٢٧١): «فلا يجوز إنكاح المؤمنة الكافر لقوله تعالى: «ولا

تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا»، ولأن في إنكاح المؤمنة الكافر خوف وقوع المؤمنة في الكفر، لأن الزوج يدعوها إلى دينه والنساء في العادات يتبعن الرجال فيما يؤثروا من الأفعال ويقلدونهم في الدين.

وإليه وقعت الإشارة في آخر الآية بقوله عز وجل: «أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» لأنهم يدعون المؤمنات إلى الكفر والدعاء إلى الكفر دعاء إلى النار؛ لأن الكفر يوجب النار، فكان نكاح الكافر المسلمة سببًا داعيًا إلى الحرام فكان حراماً.

والنص وإن ورد في المشركين لكن العلة وهي الدعاء إلى النار يعم الكفرة أجمع فيتعمم الحكم بعموم العلة فلا يجوز إنكاح المسلمة الكتابي كما لا يجوز إنكاحها الوثني والمجوسي؛ لأن الشرع قطع ولاية الكافرين عن المؤمنين بقوله تعالى: « وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» (النساء: ١٤١)، فلو جاز نكاح الكافر المؤمنة لثبت له عليها سبيل وهذا لا يجوز».

٢- قوله تعالى: « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ» (سورة الممتحنة: ١٠)

وقوله: «إِلَى الْكُفَّارِ» جمع محلى بأل، فهو لفظ عام يشمل كل كافر سواء كان وثنيًا أو كتابيًا بغير خلاف بين الأمة، وفي الآية بيان لعلة عدم إرجاع المؤمنة لعصمة الكافر، وهي أنها محرمة عليه فلا تحل له، ولذا ينفسخ العقد بمجرد إيمان المرأة تحت الكافر؛ لقوله تعالى: « لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ».

قال الإمام ابن جرير الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن (٣٢٧/٢٣): «وقال جل ثناؤه لهم: « فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ»، يقول: لا المؤمنات حل للكفار، ولا الكفار يحلون للمؤمنات».

وقال مكي بن أبي طالب في كتابه الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه (٧٤٢٦/١١): «وقوله: «لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ» أي: لا تحل المسلمة للكافر ولا الكافر للمسلمة».

> **الكافر لا ولاية له على مسلمة بحال، بإجماع أهل العلم، منهم: مالك، والشافعي، وأبو عبيد، وأصحاب الرأي.**

قال الإمام مالك: «ألا ترى أن المسلمة لا يجوز أن ينكحها النصراني أو اليهودي على حال. وهي إذا كانت نصرانية تحت نصراني فأسلمت أن الزوج أملك بها ما كانت في عدتها. ولو أن نصرانيًا ابتدأ نكاح مسلمة كان النكاح باطلاً». (المدونة الكبرى ٣٠١/٤).

وقال ابن قدامة في المغني (٢٧/٧): «أما الكافر فلا ولاية له على مسلمة بحال، بإجماع أهل العلم، منهم: مالك، والشافعي، وأبو عبيد، وأصحاب الرأي. وقال ابن المنذر: أجمع على هذا كل من نحفظ عنه من أهل العلم».

ثانيًا: دليل الإجماع على تحريم زواج المسلمة من الكافر سواء كان وثنيًا أو كتابيًا:

وهذا الدليل الإجماع إن كان صحيحًا فهو معيِّن لمعنى النصوص إن كانت تحتمل معنيين، وقاطع للخلاف إن وجد بعد انعقاده، ومخالفه متَّبع لغير سبيل المؤمنين، قال تعالى: « وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا» (النساء: ١١٥).

قال ابن حزم في مراتب الإجماع (ص ١٠): «ومن شرط الإجماع الصحيح أن يكفر من خالفه بلا اختلاف بين أحد من المسلمين في ذلك».

فهل انعقد الإجماع على حرمة زواج المسلمة من غير المسلم سواء كان وثنيًا أو كتابيًا؟

والجواب بعون الملك الوهاب:

أجمعت الأمة على حرمة زواج المسلمة من غير المسلم، وهذا من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة؛ فلا يجهله كبير ولا صغير ولا عالم ولا عامي، بل هو مما اشتهر عند غير المسلمين.

وممن نقل الإجماع جمع من أهل العلم منهم ابن المنذر، والفخر الرازي، وابن قدامة كما سبق، ومنهم:

١- الشافعي في كتابه الأم (١٥/٦).

٢- ابن عبد البر في كتابيه: التمهيد (٢١/١٢)، والاستذكار (٥٢١/٥).

٣- أبو المظفر السمعاني في تفسيره، قال (٢٢٣/١):

«ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» في هذا إجماع أن المسلمة لا تنكح من المشركين أجمع».

٤- ابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، قال (١/ ٢٩٧): «أجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لما في ذلك من الغضاضة على دين الإسلام».

٥- القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن (٣/٧٢).

٦- أبو الفرج ابن قدامة في الشرح الكبير (٧/٥٠٧).

٧- ابن جزي في القوانين الفقهية، قال (١/١٣١): «وإن نكاح كافرٍ مسلمة يحرم على الإطلاق بإجماع».

٨- العز بن عبد السلام في تفسيره (١/٢١٣).

٩- أبو حيان في البحر المحيط (٢/٤١٩).

١٠- ابن عادل في اللباب (٤/٦٢).

فهؤلاء عشرة من أهل العلم غير من سبق اكتفيت بنقلهم للإجماع على حرمة زواج المسلمة من غير المسلم مطلقًا أردت التنبيه بهم على أمثالهم من أهل العلم.

وقد يتبادر سؤال لبعض إخواني وهو لماذا أحل الله تعالى زواج المسلم من الكتابية بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ (المائدة: ٥)، ولا يحل لغير المسلم الزواج من المسلمة؟

وقد أجاب عن هذا السؤال جمع من أهل العلم، ولخص جوابهم الشيخ عطية محمد سالم في إتمامه لأضواء البيان، قال (٨/١٦٤-١٦٥):

«والجواب من جانبين:

الأول: أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، والقوامة في الزواج للزوج قطعًا لجانب الرجولة، وإن تعادلا في الحلية بالعقد؛ لأن التعادل لا يلغي الفوارق كما في ملك اليمين، فإذا امتلك رجل امرأة حلَّ له أن يستمتع منها بملك اليمين، والمرأة إذا امتلكت عبدًا لا يحل لها أن تستمتع منه بملك اليمين.

ولقوامة الرجل على المرأة وعلى أولادها وهو كافر لا يسلم لها دينها، ولا لأولادها.

> “ومن شرط الإجماع الصحيح أن يكفر من خالفه، بلا اختلاف بين أحد من المسلمين في ذلك.”

والجانب الثاني: شمول الإسلام وقصور غيره، وينبني عليه أمر اجتماعي له مساس بكيان الأسرة وحسن العشرة، وذلك أن المسلم إذا تزوج كتابية، فهو يؤمن بكتابها ورسولها، فسيكون معها على مبدأ من يحترم دينها لإيمانه به في الجملة، فسيكون هناك مجال للتفاهم، وقد يحصل التوصل إلى إسلامها بموجب كتابها.

أما الكتابي إذا تزوج مسلمة، فهو لا يؤمن بدينها، فلا تجد منه احترامًا لمبدئها ودينها، ولا مجال للمفاهمة معه في أمر لا يؤمن به كلية، وبالتالي فلا مجال للتفاهم ولا للوئام، وإذا فلا جدوى من هذا الزواج بالكلية، فمُنع منه ابتداءً».

رابعًا: لمن يتبع الطفل إذا ولد بين أبوين أحدهما مسلم والآخر غير مسلم؟

والجواب: قال ابن القيم الجوزية في إعلام الموقعين (٢/٦٧): الطفل لا يستقل بل لا يكون إلا تابعًا لخير أبويه في الدين، تغليبًا لخير الدينين، فإنه إذا لم يكن له بد من التبعية لم يجز أن يتبع من هو على دين الشيطان، وتنقطع تبعيته عمن هو على دين الرحمن فهذا محال في حكمة الله تعالى وشرعه.

وقال في تحفة المودود (ص/١٣٥) والولد:

- يتبع أمه في الحرية والرق.
- ويتبع أباه في النسب، والتسمية وتعريف النسب والمنسوب.
- ويتبع في الدين خير أبويه دينًا.

وقد نظمها السيوطي في ثلاثة أبيات:

يتبع الابن في انتساب أباه
ولأم في الرق والحرية
والزكاة الأخف والدين الأعلى
والذي اشتد في جزاء ودية
وأخس الأصلين رجسًا وذبحًا
ونكاحًا والأكل والأضحية

هذا ما يحتمله هذا المقام.

والحمد لله رب العالمين.

أخلاقنا من الكتاب والسنة

الآثار السلبية للبخل

إعداد **إبراهيم رفعت**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

البخل خلق مذموم ذمَّه الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة من كتابه العزيز، وتوعَّد أصحابه بوعيد شديد، وعقوبات تلحقهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (آل عمران:١٨٠).

وكذلك البخل من الصفات القبيحة التي تؤدِّي لنشر الحقد والحسد والغل بين أفراد المجتمعات، والبخيل يمتنع عن الإنفاق وصرف المال حتى في الأمور الضرورية، وهذا يجعل الإنفاق ثقيلاً جدًا على البخيل، مما يجعل حياته كئيبة بائسة يائسة متأزمة خائفًا مرعوبًا، رغم الأموال الطائلة التي تملأ خزائنه، إلا أنها عنده أغلى من نفسه وولده وأهل بيته، فينمّيها ويستثمرها ولا يخرج زكاتها ولا ينفقها.

وقد حرَّم الإسلام هذه الصفات إذ قال الله عز وجل في سورة الليل: « وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ⑨ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ» (الليل: ٨-١٠)، لذلك وجب على كل امرئ أن لا يتصف بهذه الصفة المحرمة، وأن يعيش حياته طبيعيًا مقيمًا لحدود الله: ينفق مما أتاه من فضله، ولا يعطي أهمية للأمور الدنيوية أكثر من الدينية؛ لأن الاهتمام بالأموال وكنزها سيلهيه عن العبادة، مصداقًا لقوله تعالى سورة التكاثر: « أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» (التكاثر:١-٢)؛ أي أن الإنسان يبقى منشغلاً بعدة أمور تافهة، وحينما يصل إلى آخر ثواني عمره يجد أن ميزان حسناته فارغ من وذنوبه ثقيلة.

قال الله تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنۢبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ㊱ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) (النساء: ٣٦-٣٧).

وقال تعالى: (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسه فأُوْلئك هُمُ المُفْلحُونَ) (الحشر:٩)، وعن أنس بن مالك، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال" (رواه البخاري).

والبخيل صاحب قلب أسود، وطبع أبلد، فما أشقاه وما أخزاه!، يقتر على أهله ونفسه وولده وأهله البعيد والقريب، فأفقر الابن والحبيب، وأذاقهم لبخله الضَّنك والشقاء، يرون أمواله لا يُحصيها عدد، ولا تحويها مدينةٌ أو بلد، أمواله مكدّسةٌ في الصناديق والمصارف، وبجَمْعها وعدِّها حريصٌ وعاكف، فتبًّا له على هذا الشقاء!، وتعسًا له هذا العناء!

وكم رأينا بأم أعيننا أولادًا يتمنون موت أبيهم؛ حتى ينعموا بأمواله التي كنزها، وكذلك زوجات يختلعن ويفضلن الطلاق عن حياة البخيل.

والبخيل ينظر لكل من حوله بعين الحقد والحسد والغيرة، ويعيش فقيرًا رغم ما لديه من أموال لا تحصى ولا تعد، وسوف يُسأل عن عنها بين يدي الحكم العدل.

أنواع البخل:

للبُخل عدّة صور منها:

١- البُخل بالمال أو بالمقتنيات الشخصيَّة.

٢- بخل الإنسان بنفسه فلا يُقدّمها في سبيل الله؛ بسبب تعلُقه بالدُنيا.

٣- البُخل بالجاه: وهو أن يبخل صاحب الجاه أو المنصب العالي بقدرته على نفع المحتاجين.

٤- البُخل بالعلم: هو أسوأ وأقبح أنواع البُخل، حيث يقوم صاحب العلم بكتمه عمن يحتاجه، فهو لا ينصحُ ولا يُعلم الآخرين، قال الله-سبحانه وتعالى-: (ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا)(النساء:٣٧).

٥- البُخل بالصدقة: وهو أن لا يتصدّق الإنسان من المال الذي أكرمه الله به.

فالبخل داء فتّاك فرّق الأحباب والأقارب والأخوة والأخوات والأبناء والأمهات والآباء، وأغلق بيوتًا، وهدم أسراً، ودمر مجتمعات، وزرع الحقد والغل في الصدور، فتقطعت الأواصر، وانصرمت الوشائج، وقام على أساسه سوق الحسد والبغض، وهو من أشد الابتلاءات وأخبثها، لا يثق صاحبه في الله تعالى، فهو دائمًا يسيء الظن بخالقه، ويستقل رزقه، وأن هذا الذي بين يديه من الخير والمال والنعمة لو انقضى فلن يأتي بعده خيرٌ، ولن يخلف الله عليه بسواه، وأن أمواله لو تصدق منها صار فقيراً معوزاً كالمتصدق عليهم، وما أيقن هؤلاء الظانين بالله ظن السوء أن المال لا تنقصه الصدقة بل تنمّيه وتبارك فيه.

والبخيل مع شحّه وعدم بذله المال وغيره ليس بسيّد ولا بقائد في قومه بل يظل بعيدًا عن الأنظار لا يذكره أحد إلا بسوء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سيدكم يا بني سلمة؟" قلنا: الجد بن قيس، على أنا نبخله. قال: "أيّ داء أدوى من البخل! بل سيدكم عمرو بن الجموح" أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

فانظروا أيها الأكارم كيف عدّ النبي صلى الله عليه وسلم البخل داءً مانعًا من سيادة الرجل وامامته قومه وتقدّمه على عشيرته، وانظروا كيف سوّد على القوم أنداهم كفًا وأوسعهم عطاء وأكرمهم وأبذلهم للمعروف.

والبخل موروث اجتماعيّ خطير يعود في أصله إلى التنشئة الأولى التي تلقاها الفرد في طفولته، حتى أصبح صفة مستمرة معه وتأثرت به أسرته في كل شؤون الحياة.

آثار البخل:

فقد ذمّ الإسلام البخل بكل صوره وأشكاله أيّما مذمّة، وتوعد الله عز وجل البخلاء الذين يزين لهم الشيطان البخل والإمساك مبينًا أن البخل شرّ عظيم وداء عضال مهلك: قال الله تعالى: (وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ) (آل عمران: ١٨٠).

وأكد الله سبحانه وتعالى على أن البخيل يضرّ بأهله؛ فقال عز من قائل: (هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم) (محمد:٣٨).

البخل والنفاق:

وبخل المنافقين الذي يرجع أصله إلى الحرص الشديد على أموال الدنيا فقط، وكذلك المنافق مخلوق شديد البخل، قابض يده، ممسك عن أيّ بذل، متقاعس عن أي خير.

ولقد جاءت آيات كثيرة القرآن الكريم تؤكّد شُحّ المنافقين وبيان حقيقة بخلهم وإمساكهم عن أي خير ونفع للناس؛ فقال تعالى: «ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ» (الحديد:٢٤)، «فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ» (التوبة:٧٦)، «وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ» (التوبة:٥٤)، «وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡ» (التوبة:٦٧)، «أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡ» (الأحزاب: ١٩)، «أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِ» (الأحزاب: ١٩).

هدانا الله وإياكم لأحسن الأخلاق والأعمال وصرف عنا سيئها.

فقه المرأة في النكاح

الحلقة
(٤٠)

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد: فقد تحدثنا في المقالة السابقة عن حظر الخلوة بالمخطوبة، والعدول عن خطبة المرأة وأثره، والكفاءة في النكاح، ونستكمل بعض الأحكام المتعلقة بفقه النكاح سائلين الله عز وجل أن يتقبل جهد المقل وأن ينفع به المسلمين.

إعداد د/عزة محمد رشاد (أم تميم)

أولا: شروط وأركان النكاح:

لا بد من توافر شروط وأركان النكاح حتى يكون نكاحًا صحيحًا، وهي:

(١) الإيجاب والقبول من الطرفين.
(٢) تعين الزوجين.
(٣) الولي.

واختلفوا في الإشهار والإعلان.

الأول: الإيجاب والقبول من الطرفين:

لا يتم العقد إلا بلفظ الايجاب والقبول، ولكن إذا تقدم السؤال كان مغنيًا عن القبول كما في حديث «زَوِّجْنيهَا يا رَسُول قال: زَوَّجْتكهَا» (أخرجه البخاري: ٥١٤٩). وقد كان مثل هذا الغالب في أيام النبوة. (السيل الجرار ٢/٢٦٣، بدائع الصنائع ٢/٣٤٤).

قال صاحب الشرح الممتع (١٣٣/٥): الإيجاب: هو اللفظ الصادر من الولي أو من يقوم مقامه، كأن يقول الولي - كالأب والأخ وما أشبه ذلك - زوجتك ابنتي أو زوجتك أختي، وسمي إيجابًا لأنه أوجب به العقد. والقبول: هو اللفظ الصادر من الزوج أو من يقوم مقامه، ويقوم مقام الولي الوكيل، والوكيل هو الذي أذن له بالتصرف في حياته، كأن يقول: وكلتك أن تزوج ابنتي.

الألفاظ التي ينعقد بها النكاح:

تنازع العلماء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: الألفاظ التي ينعقد بها النكاح هي ألفاظ التزويج أو الإنكاح.

وحجتهم في ذلك:

١- قول الله تعالى: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) (النساء: ٢٢).

٢- قوله تعالى: (فلما قضى زيدا منها وطرًا زوجناكها) (الأحزاب: ٣٧). قالوا هذان اللفظان اللذان ورد بهما القرآن: النكاح أو التزويج.

وهذا مذهب الشافعي وظاهر مذهب أحمد.

القول الثاني: ينعقد النكاح بكل لفظ يقتضي التمليك كالبيع والتمليك والهبة والصدقة.

وحجتهم في ذلك: حديث سهل بن سعد الساعدي الذي أخرجه البخاري في صحيحه وفيه أن امرأة قامت فقالت: يا رَسُول الله إنهَا قدْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لكَ فرَ فيهَا رأيكَ فلَمْ يُجبْهَا شيْئًا... إلى أن قال فقَامَ رَجُل فقَال: يا رَسُول الله أنْكحْنيهَا! قال: هلْ عنْدكَ منْ شيْءٍ؟ قال:

لا قال: اذهب فاطلب ولو خاتما من حديد فذهب فطلب ثم جاء فقال: ما وجدت شيئا ولا خاتما من حديد فقال: هل معك من القرآن شيء؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا قال: اذهب فقد أنكحتكها بما معك من القرآن » (أخرجه البخاري: ٥١٤٩). قالوا: قد جاءت رواية بلفظ « ملكتكها ». قال الحافظ في الفتح (١٢٢/٩) رواية عبد العزيز بن أبي حازم ويعقوب بن عبد الرحمن وحماد بن زيد، وفي رواية معمر (أملكتكها) وهي بمعناها.

وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك واحدى الروايتين عن أحمد.

أقوال أهل العلم في المسألة:

أولاً: من ينعقد بها النكاح بلفظ التزويج أو الإنكاح: جاء في المجموع (٣٠٩/١٧): "لا ينعقد النكاح عندنا إلا بلفظ النكاح أو التزويج وهما اللفظان اللذان ورد بهما القرآن... وساق الآية كما تقدم فأما لفظ البيع والتمليك والهبة والاجارة وغيرها من الألفاظ فلا ينعقد بها النكاح، وبه قال عطاء، وابن المسيب، والزهري، وربيعة . وأحمد بن حنبل. وقال أبو حنيفة: ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك كالبيع والتمليك والهبة والصدقة وفي لفظ الإجارة عنه روايتان ولا ينعقد بالإباحة والتحليل، وقال مالك: إن ذكر المهر مع الألفاظ التي تقتضي التمليك انعقد بها النكاح، وان لم يذكر المهر لم ينعقد بها النكاح.

ودليلنا قوله تعالى: (وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) (الأحزاب: ٥٠): فذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم مخصوص بالنكاح بلفظ الهبة، أن غيره لا يساوي، ولأنه لفظ ينعقد به غير النكاح فلم ينعقد به النكاح كالإجارة والإباحة".

جاء في الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف للمرداوي (٤٥/٨): "ولا ينعقد الايجاب إلا بلفظ النكاح و التزويج، والقبول، أن يقول: قبلت هذا النكاح أو هذا التزويج. ومن ألفاظ صيغ القبول "تزوجتها". قال في الفروع "أو رضيت هذا النكاح".

اعلم أن الصحيح من المذهب: أن النكاح لا ينعقد إلا بالايجاب والقبول بهذه الألفاظ، لا غير. وعليه جماهير الأصحاب. وقطع به كثير منهم، منهم: صاحب الرعايتين، والحاوي الصغير، والوجيز، وغيرهم. وقدمه في الفروع وغيره. وقيل: يصح.

ثانيا: ينعقد النكاح بكل لفظ يقتضي التمليك: جاء في الهداية في شرح بداية المبتدي (١٨٥/١): "وينعقد بلفظ النكاح والتزويج والهبة والتمليك والصدقة". وقال الشافعي رحمه الله: لا ينعقد إلا بلفظ النكاح والتزويج لأن التمليك ليس حقيقة فيه ولا مجازا عنه لأن التزويج للتلفيق والنكاح للضم ولا ضم ولا ازدواج بين المالك والمملوكة أصلا. ولنا أن التمليك سبب لملك المتعة في محلها بواسطة ملك الرقبة وهو الثابت بالنكاح والسببية طريق المجاز " وينعقد بلفظ البيع " هو الصحيح لوجود طريق المجاز " ولا ينعقد بلفظ الإجارة " في الصحيح لأنه ليس بسبب لملك المتعة " و"لا بلفظ" الإباحة والإحلال والإعارة " لما قلنا " و"لا بلفظ " الوصية " لأنها توجب الملك مضافا إلى ما بعد الموت".

جاء في بداية المجتهد ونهاية المقتصد (٣٢/٣): "واتفقوا على أن انعقاد النكاح بلفظ النكاح ممن إذنه اللفظ، وكذلك بلفظ التزويج. واختلفوا في انعقاده بلفظ الهبة أو بلفظ البيع أو بلفظ الصدقة. فأجازه قوم، وبه قال مالك، وأبو حنيفة. وقال الشافعي: لا ينعقد إلا بلفظ النكاح أو التزويج.

وسبب اختلافهم هل هو عقد يعتبر فيه مع النية اللفظ الخاص به؟ أم ليس من صحته اعتبار اللفظ؟ فمن ألحقه بالعقود التي يعتبر فيها الأمران قال: لا نكاح منعقد إلا بلفظ النكاح أو التزويج. ومن قال: إن اللفظ ليس من شرطه اعتبارا بما ليس من شرطه اللفظ أجاز النكاح بأي لفظ إذا فهم المعنى الشرعي من ذلك، أعني أنه إذا كان بينه وبين المعنى الشرعي مشاركة".

جاء في السيل الجرار (٢٦٣/٢): "ينبغي أن يكون هذا اللفظ الذي وقع به العقد بلفظ النكاح أو التزويج أو ما يفيد هذا المفاد مما يتعارف به الناس بينهم ولو لم يكن يفيد التمليك، وما يفهم من الأعراف المصطلحة بين القوم مقدم على غيره لأن التفاهم بينهم هو اعتبار ذلك الاصطلاح ولم يأت في الكتاب والسنة ما يدل على أنه لا يجزئ في هذا الا لفظ أو ألفاظ مخصوصة... ثم ساق حديث الباب بلفظ: "ملكتكها".

ثالثًا: هل رضا المنكوحة واجب أم مستحب؟

- عن ابن عباس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الأيِّم أحقُّ بنفسها من وليِّها والبِكْرُ تُستأذَنُ في نفسها وإذنُها صُماتُها». (أخرجه مسلم: ١٤٢١)

- وعن خنساء بنت خدام الأنصارية أن أباها زوجها وهي ثيب فكرهت ذلك، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد نكاحها. (أخرجه البخاري: ٥١٣٨).

- وعن عائشة، قالت: «تزوَّجني رسُول الله صلى الله عليه وسلم لستِّ سنين وبنى بي وأنا بنتُ تسع سنين». (أخرجه البخاري ٣٨٩٦، ومسلم ١٤٢٢).

ذهب جمهور أهل العلم إلى أن رضا الثيب واجب وحجتهم حديث خنساء المتقدم.

واختلفوا في زواج البكر على قولين:

القول الأول: جواز تزويج البكر بغير استئذانها وأن الاستئذان مستحب وليس واجبا في حق الأب أو الجد، وإن كان غيرهما من الأولياء وجب الاستئذان. وهذا ما ذهب إليه جمهور الفقهاء: الشافعي ومالك ورواية عن أحمد.

القول الثاني: للأب أن يزوج ابنته الصغيرة البكر-ما لم تبلغ- بغير استئذانها وحجتهم في ذلك حديث عائشة المتقدم في الباب.

وهذا مذهب أبي حنيفة وأهل الظاهر ورواية عن أحمد.

قال النووي: وأجمع المسلمون على جواز تزويجه بنته البكر الصغيرة لهذا الحديث. (شرح النووي على صحيح مسلم ٥/٢٢٤).

أما البكر البالغة فلا يجوز للأب ولا لغيره من الأولياء تزوجها بغير استئذانها، وحجتهم حديث ابن عباس المتقدم وفيه «.... والبكرُ تُستأذَنُ في نفسها».

أقوال أهل العلم في المسألة:

أولا: من ذهب إلى وجوب استئذان البكر البالغة:

جاء في بدائع الصنائع (٢/٣٦١): "أن الأب والجد لا يملكان إنكاح البكر البالغة بغير رضاها عندنا وقال الشافعي: يملكانه، ولا خلاف في أنهما لا يملكان إنكاح الثيب البالغة بغير رضاها".

قال أبو محمد بن حزم في المحلى (٩/٣٨): "وللأب أن يزوج ابنته الصغيرة البكر – ما لم تبلغ – بغير إذنها... وإذا بلغت البكر والثيب لم يجز للأب ولا لغيره أن يزوجها إلا بإذنها، فإن وقع فهو مفسوخ أبدًا".

جاء في السيل الجرار (٢/٢٧٤): "قوله:... رضاءُ المكلفة... إلخ".

أقول: قد دلت الأحاديث الصحيحة على أنه لا يتم نكاح إلا برضا المنكوحة... وساق حديث ابن عباس المتقدم.

قال المرداوي في الإنصاف (٨/٥٢): "وعنه: لا يجوز تزوج ابنة تسع سنين إلا بإذنها، قال الشريف أبو جعفر: هو المنصوص عن الإمام أحمد رحمه الله، قال الزركشي: وهي أظهر، وأطلقها في الهداية والمذهب والمستوعب والخلاصة والمحرر... إلى أن قال: قال بعض المتأخرين من الأصحاب: وهو الأقوى".

قال الحافظ في فتح الباري (٩/١٠١): في ثنايا شرحه حديث خنساء المتقدم...

قوله باب: إذا زوج الرجل ابنته وهي كارهة فنكاحه مردود، هكذا أطلق فشمل البكر والثيب، لكن حديث الباب مصرح فيه بالثيوبة، فكأنه أشار إلى ما ورد في بعض طرقه كما سأبينه، وردّ النكاح إذا كانت ثيبًا فزوجت بغير رضاها إجماع.

ثانيًا: من ذهب إلى جواز تزويج البكر البالغة بغير إذنها:

جاء في المدونة (٢/١٠٠): "لا يجبر أحد أحدًا على النكاح عند مالك إلا الأب في ابنته البكر وفي ابنه الصغير وفي أمته وعبده والولي في يتيمه".

جاء في روضة الطالبين (٥/٤٠١): "فللأب تزويج البكر الصغيرة والكبيرة بغير إذنها ويستحب استئذان البالغة ولو أجبرها صح النكاح".

وفي الإنصاف (٨/٥٣): "البكر البالغة له إجبارها أيضا، على الصحيح من المذهب".

تعقيب وترجيح

ما تطمئن له النفس وينشرح له الصدر في هذه المسألة هو ما ذهب إليه الإمامان أبو حنيفة وابن حزم والراجح من مذهب الإمام أحمد ومن وافقهم من عدم جواز تزويج البكر البالغة بغير إذنها؛ لأن الأحاديث جاءت صحيحة وصريحة بذلك، وقد ذكرنا منها حديث ابن عباس الذي أخرجه مسلم وغيره، والله تعالى أعلم.

باب السنة

وضوح البيان بتعظيم قَدْر النبيّ العدنان صلى الله عليه وسلم

إعداد:

د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد بدأنا في شهرنا الخالي -ربيع الآخر- شرح حديث صحيح من دلائل الإعجاز النبوي المبارك وكان مناسبة اختياره هو المساهمة في بيان بعض حقوق نبينا صلى الله عليه وسلم كقليل مساهمة في الرد على شانئيه ممن يظهر حقدهم حينًا بعد حين، فضلاً عن أن بيان سنته صلى الله عليه وسلم هو دور من أدوار باب السنة عمومًا، ولما كانت الحلقة الأولى مشتملة في الغالب على بيان انتقام الله عز وجل لنبيه: فكان اسمها: العبر في انتقام الله ممن سخر من سيد البشر، ولما كانت الحلقة الثانية من شرح الحديث قد اشتملت في غالبها على بيان ما يجب من محبة النبي وتعظيم قدْره كان عنوانها كما هو الحال، والله أسأل أن تكون سبب شفاعة لمحبيه وليتكرم القارئ الحبيب -بغير كلفة- بمتابعة مجلة التوحيد في عددها السابق.

هذا واستكمالاً لما سبق نقول وبالله التوفيق:

الحديث:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًا فَأَسْلَمَ، وَقَرَأَ البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الأَرْضُ، فَعَلِمُوا: أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ، فَأَلْقَوْهُ. (صحيح البخاري ٣٦١٧).

التخريج:

هذا الحديث متفق عليه، وقد تقدم تخريجه وشرحه تفصيلاً في العدد السابق، وفيما يتعلق بفوائد الحديث تقدم بيان فائدتين هما:

١- أن الابتلاء سُنَّة من سُنن الله عز وجل.

٢- وأن الله -تبارك اسمه وتعالى شأنه- ناصر دينه ومنتقم لنبيه لا محالة، ثم بينا حكم السبَ ومناطه، وأنه أشد من الردة، وبيَّنا كذلك أن هذه الأحكام النظرية يتولى إقامة حدودها العملية ولي أمر المسلمين، ولا تُترك لعوامهم؛ وذلك صيانة للمجتمع المسلم من الفوضى.

ثم ها نحن اليوم نستكمل مما ييسره الله تبارك وتعالى ويفتح به.

ومما يستفاد من الحديث أيضًا

٣- وجوب الحذر من الفتن خوفًا من النكوص؛

إذ في أخبار الناكصين على أعقابهم عِبر للمعتبرين، وآيات للمتعظين، قال الحق سبحانه: « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (سورة النور: ٦٣). وهاء الغائب عائدة على خاتم الأنبياء والمرسلين، وأمره أمرٌ من رب العالمين.

وما أخبار هذين الرجلين الناكصين المفتونين عنا ببعيدة؛ فقد آمنا بالنبي صلى الله عليه وسلم وشاهَداه، وحضرا تنزُّل الوحي، فسبق عليهما -بما قدَّما- الكتاب فنكصا على عقبيهما، وارتدَّا عن إيمانهما، وماتا على ردتهما، نعوذ بالله تعالى من الردى بعد الهدى. فلا يغترَّ عاملٌ بعمله فيظن أنه في مأمن ومنجاة؛ فما أضعف الإنسان إذا تسلط عليه الشيطان، فاستبدل الكفر بالإيمان!.

أما أحدهما: فكان قارئًا للقرآن، كاتبًا للوحي، قد شرّفه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المهمة الجليلة، ولكنَّه لم يكن أهلاً للعز والشرف، وخبره يرويه أَنَسُ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما تقدم في حديث الشهر سالف الذكر.

وأما الآخر: فربيعة بن أمية الجمحي، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم، ثم شرب الخمر في خلافة عمر رضي الله عنه، فهرب خوفًا من إقامة الحد عليه إلى الشام، ثم لحق بالروم فتنصر.

أكرمه النبي صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه، فكان معه في حجة الوداع يلقي على الناس خطابات النبي صلى الله عليه وسلم لهم؛ كما روى عبَّادُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بن الزُّبَيْر رضي الله عنهم قال: « كَانَ رَبِيعَةُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ هُوَ الَّذِي يَصْرُخُ يَوْمَ عَرَفَةَ تَحْتَ لَبَّةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اصْرُخْ، وَكَانَ صَيِّتًا، أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَدْرُونَ أَيَّ شَهْرٍ هَذَا؟ فَصَرَخَ، فَقَالُوا: نَعَمْ، الشَّهْرُ الْحَرَامُ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا » (رواه الطبراني وصححه ابن خزيمة).

ورغم هذه الكرامة التي اخْتُصَّ بها من النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنه وقع في المعصية زمن عمر رضي الله عنه، وشرب الخمر، فكان ذلك سبب ردَته، وهذا يبيِّن خطر الكبائر والموبقات على العبد، فسبحان مُقلِّب القلوب، تقلب قلبه بمعصية قادته إلى الكفر وهو لا يشعر، وقد قيل في الخمر: إنها أُمّ الخبائث؛ لأنها تجمع الشرّ لشاربها، وتُزيِّن له سوء عمله وذلك بتغطية عقله، فإذا غطى عقله بالخمر تغطَّى قلبه بالران فلا يَعْرف معروفًا ولا يُنْكر منكرًا إلا ما أُشْرِب من هواه.

وللنكوص أسباب كثيرة، وقد يحدث لأهون الأسباب: لشبهة أو شهوة.

هذا ولا شك أن من أعظم أسباب الفتن التي يموج فيها المسلمون اليوم وما يلاقونه في مشارقها ومغاربها من قتل وتشريد وتخويف وتهديد لا شك أن من أعظم أسباب ذلك: مخالفة الأمر النبوي الكريم واتباع الهوى.

إن قول الله تعالى: « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (سورة النور: ٦٣). تهديد صريح للذين يخالفون أمره، أي سبيله وسنته وشريعته ليحذرَ أولئك. وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا وظاهرًا أن تصيبه فتنة يزيغ بها قلبه ويُلتبس عليه بها شأنه فيصيبه في الدارين عذاب أليم.

ذكر الإمام الشاطبي رحمه الله (في كتاب

الاعتصام ج١ ص٩٩) قال: حكى ابن العربي عن الزبير بن بكار، قال: "سمعت مالك بن أنس، وأتاه رجل، فقال: يا أبا عبد الله! من أين أُحْرِمُ؟ قال: من ذي الحُليفة، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إني أريد أن أُحْرِم من المسجد. فقال: لا تفعلْ. قال: فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعلْ؛ فإني أخشى عليك الفتنة. فقال: وأي فتنة هذه؟! إنما هي أميالٌ أزيدُها. قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم! إني سمعت الله يقول: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (سورة النور: ٦٣).

ثم قال الشاطبي: "وهذه الفتنة التي ذكرها مالك رحمه الله في تفسير الآية هي شأن أهل البدع وقاعدتهم التي يؤسّسون عليها بنيانهم، فإنهم يرون أن ما ذكره الله في كتابه وما سنّه نبيه صلى الله عليه وسلم دون ما اهتدوا إليه بعقولهم".

هذا هو لازم فعلهم وقولهم، وإن لم يصرّحوا به تصريحًا، والابتداع والزيغ عن الصراط المستقيم هو من تلك الفتن التي قد تصيب من يخالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقال الله تعالى: «أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (سورة آل عمران: ١٦٥).

قلت: فما بالنا اليوم وقد جعل القوم أنفسهم ندًا لرسول الله، وهذا على أقل وصف وتقدير وإلا فالأمر أعظم والحال جدّ خطير.

فنعوذ بالله تعالى من الحوْر بعد الكوْر، ويا مُقلّب القلوب ثبّتْ قلوبنا على دينك «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ» (آل عمران: ٨).

٤- تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته:

ومن أهم ما يُستفاد أن ينمّي المرء في قلبه تعظيم قدر النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته: وذلك بالأخذ بأسباب ذلك ورعاية مظاهره، ومنه:

أ- تجريدُ التوحيد لله سبحانه وتحقيق العبودية: إذ هي دعوة الأنبياء عمومًا وتمام دعوة خاتم الأنبياء خصوصًا؛ إذ لا يصلح للعبد شأن لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا تستقيم للأمم أحوال في صغيرها ولا في كبيرها إلا بتجريد التوحيد وتحقيق العبودية.

والعاقل مَن أدرك أنه واقع تحت القدرة وأنه خُلق بحكمة ولحكمة، ومن وقع تحت القدرة كان عبدًا شاء أم أبى، فلا يصلح من خُلق عبدًا أن يكون غير هذا، ولو حاول أو أراد لصار سلعة كاسدة.

وعلى أيِّ حال فالأمر كما قال أهل العلم: العبودية نوعان: عبودية قهر واجبار، وعبودية انقياد واختيار، وكما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب العبودية: "المخلوقون كلهم عبادُ الله: الأبرار منهم والفجّار، والمؤمنون والكفّار، وأهل الجنّة وأهل النار؛ إذ هو ربهم كلهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته.. فهو سبحانه ربُّ العالمين وخالقُهم ورازقُهم، ومُحييهم ومميتُهم.. سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه، لكنَّ أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك وآمنوا به؛ بخلاف مَن كان جاهلاً بذلك؛ أو جاحدًا له مستكبرا على ربِّه" (ينظر كتاب العبودية ص: ٥٠ – ٥١).

والله تبارك وتعالى لما خيَّر الجماد فعرض عليه العبوديتين: اختار الجماد عبودية الطاعة والانقياد كما قال تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) (سورة فصِّلتْ:١١).

هذا وللعبودية قانون معروف يعرفه أهل العلم والتقى خلاصته أن لا يُحرِّك العبدُ ساكنًا ولا يُسكِّن متحركًا بغير إذن مولاه، وهذا شأن العبد الوفي، ولا يتأتّى ذلك إلا بمحبة ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي.

وهذا يجرنا إلى لازم من لوازم هذا التوحيد وهذه العبودية، ودليل من دلائل محبة النبي وتعظيم قدْره؛ ألا وهو متابعة الحبيب عليه الصلاة والسلام، ويختصرها الإمام العلَم سفيان

الثوري بقوله: "إن استطعت ألا تحُكَّ رأسك إلا بأثرٍ فافعل" (ذكره الخطيب رحمه الله في الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع). وهذا باب واسع نختصر منه ما يكفي من إشارة وهي ثاني الفوائد.

٥- من أهم وأكثر علامات محبة النبي صلى الله عليه وسلم: متابعته والاقتداء به:

قال القاضي عياض - رحمه الله - في كتابه "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" في بيان علامات محبته صلى الله عليه وسلم: "اعلم أنَّ مَن أحبَّ شيئاً آثره وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبِّه، وكان مدَّعياً. فالصادق في حبِّ النبي -صلى الله عليه وسلم- مَن تظهر علامة ذلك عليه، وأولها الاقتداء به، واستعمال سُنَّته، واتباع أقواله وأفعاله، والتأدب بآدابه في عُسره ويُسره، ومنشطه ومكرهه. وشاهد هذا قوله تعالى: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) (آل عمران: ٣١)" انتهى.

تعصي الإله وأنت تزعم حبه
هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبُّك صادقا لأطعته
إنَّ المُحبَّ لمن يحب مطيع

آيات وأحاديث أفعال وأقوال كلها ناطقة شاهدة بما سبق بيانه ووضح برهانه: أنَّ من وحَّد الله أحبَّه، ومن أحبَّه أحبَّ النبيَّ، ومن أحبَّ النبيَّ أطاعه، ومن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه فقد أبى. قال رسول الله النبي صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ أُمَّتي يدْخُلون الجنَّةَ إلا مَن أبى. قالوا: يا رَسُولَ اللَّه، ومَن يأبى؟ قال: مَن أطاعَني دَخَلَ الجنَّةَ، ومَن عَصاني فقَدْ أبى" (صحيح البخاري: ٧٢٨٠).

ولذا يتضح أن من أشد الخطر ما يجاهر به نابتة من المعاصرين ممن تجرؤوا على هدي النبي الأمين وأصحابه الغُرّ الميامين تجرؤوا بجهل أو عن عمد مقلدين لدعاوى قديمة حديثة لا يخفى قديمها على أقل مطلع على كتب جهلة المتعالمين كما لا يخفى حديثها بأقل متابعة لقنوات فضائية ونُصُب إعلامية مجهولة الهوية سعى أصحابها إلى أكل العيش فأكلوه سحتًا على حساب لحوم ودماء الأولياء والصالحين بل ولا أبالغ إن قلت: أكلوه بظاهر معاداتهم لرب العالمين، غرّهم بذلك حلم الحليم، لكنه إذا أوعد أنفذ، وإذا أخذ لا يُفلت؛ فأخذه أخذ عزيز مقتدر، نسوا أو جهلوا أنهم تحت القدرة مذلولين شاءوا أم أبوا، جهلوا أو تجاهلوا أن مظاهر الاستكبار- التي تتبدى على كلامهم عن متابعته صلى الله عليه وسلم هي أعظم إثمًا من أعمال ظاهرة خالية عن هذا الفجور كالقتل والزنا وإن كانت كبائر مستبشعة وآثامًا فتاكة، لكن بقي إثم هؤلاء المتفرنجين المتعالمين المتجرئين على قدسية الشريعة ومقام النبوة أشد من هذه الكبائر خطرًا، وأعظم من هذه المستبشعات فتكًا، فيا أهل القبلة! حنانيكم بأنفسكم؛ فلا تزال بارقة الأمل تملأ قلوبنا بعودتكم إلى رشدكم والله متم نوره ولو كره الكافرون.

هذا وأفضل تقدير لحال هؤلاء هو جهلهم بمفهوم الحرية التي يزعمون وفي محرابها يتعبدون وعليها يقاتلون، وعليه فإننا نقول لهم: يا أيها الناس! إن الاسلام هو الداعي الأول والراعي الأصدق لمفهوم الحرية على وجهها الصحيح التي منحها الرب جل وعلا لعباده والتاريخ ودواوين الإسلام شاهدة على هذا، وليس ثمة وقت لبسطها، فليرجع إليها تكرمًا في مظانها.

لكننا لا يسعنا الآن إلا البيان والإعلان أن التحاكم إلى سُنة النبي عليه الصلاة والسلام ليس أمرًا اختياريًا بل هو لازم من لوازم الإيمان كما قال تعالى: « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (النساء:٦٥)، ويقول سبحانه: «فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ » (النساء: ٥٩).

وفي هذا القدر كفاية، وللحديث حلقة أخيرة بعد عناء اختصار يناسب مجلتنا المباركة، والحمد لله رب العالمين.

جهود ابن تيمية في السياسة والاقتصاد

إعداد **د. أيمن خليل**

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

المستشرق الفرنسي هنري لاوست وكتابه عن ابن تيمية:

يغفل المفترون على ابن تيمية أن هناك من عرف لابن تيمية قدره ليس كفقيه فقط، وإنما كسياسي وعالم اجتماع وكعالم اقتصاد أيضًا، ومن هؤلاء المستشرق الفرنسي هنري لاوست (هنري لاوست: هو ابن المستشرق إميل لاوست- صاحب المصنَّفات والدراسات عن لهجات البربر في المغرب- وكان مديرًا للمعهد الفرنسي بالقاهرة منذ عام ١٩٤١م، وأستاذًا في جامعة ليون عام ١٩٤٥م، تولى كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا، وانتخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٦م، وقد اهتم هنري لاوست بدراسة كتب ابن تيمية وقام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية، كما صنف كتابه "نظريات شيخ الإسلام في السياسة والاجتماع"، والذي ترجمه محمد عبد العظيم، وقدم له وعلق عليه د. مصطفى حلمي، وطبعته دار الأنصار بالقاهرة، بدون تاريخ).

وبذلك يلفت لاوست الأنظار إلى ابن تيمية كعالم موسوعي، ومن ثم فهذه نظرة إلى ابن تيمية لا تقتصر على كونه من فقهاء الحنابلة المبرزين، وإنما أيضًا كاقتصادي، ومن ينظر في ثنايا مصنفات ابن تيمية كالفتاوى نجد أنه قد تناول العديد من المسائل الاقتصادية

“قدم هنري لاوست ابن تيمية عالمًا موسوعيًا يشمل علمه السياسة والاقتصاد والاجتماع.”

بالبحث والتحليل، كما تناول في كتبه أفكارًا اقتصادية كثيرة، ويبدو ذلك جليًا في كتابيه الحسبة، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية.

ابن تيمية في كتابه "الحسبة" يناقش مسألة التعزير بالعقوبات المالية (الغرامات):

ناقش ابن تيمية في كتابه "الحسبة" مسألة مهمة في الاقتصاد ألا وهي مسألة تدخُّل الدولة في النشاط الاقتصادي، حيث عرض لذلك تحت عنوان: إذا امتنع الناس عن بيع ما يجب عليهم بيعه فهل يؤمرون ببيعه؟ وهل يُعاقَبُونَ على الامتناع عن ذلك؟ وناقش ابن تيمية في ذلك مسألتين هما: مسألة الاحتساب في المعاملات المحرمة مثل: "الاحتكار" لما يحتاج الناس إليه، وبيّن الحكم في حال امتناع الناس عن بيع ما يجب عليهم بيعه، والمسألة الثانية هي سلطة ولي الأمر في التدخل في الحياة الاقتصادية: حيث يجيب عن تساؤل مفاده: وهل للحاكم أن يأمرهم المحتكرين ببيع ما يحتاج إليه الناس مما بأيديهم، وما هي الضوابط لذلك.

كما عرض ابن تيمية في هذا الكتاب لمسألة- فشت في عصرنا الحالي- وهي العقوبات المالية (كالغرامات)؛ حيث عرض ابن تيمية لمسألة التعزير بالعقوبات المالية، وعرض للرأي القائل بأن التعزير بالمال لا يجوز (وهذا هو الراجح عند أكثر الأئمة)؛ لما فيه من فتح الباب لتسلُّط الظلمة على أخذ مال الناس بشتّى الذرائع، فيأكلونه بغير وجه حقّ بأسباب واهية.

كما عرض ابن تيمية للرأي الثاني المجيز للتعزير بالعقوبات المالية في مواضع مخصوصة منتصرًا في ذلك لمشهور مذهب مالك، ولما اختاره أحمد بن حنبل، ومستدلاً على ذلك بحديث سعد بن أبي وقاص الذي أخرجه أبو داود في سننه بإباحة سلب الذي يصطاد في حرم المدينة، ومثل أمره بكسر دنان الخمر وشق ظروفه. كما استدل كذلك بأمر النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله عنهم يوم خيبر لما رأى القدور تفور بلحم الحمر أمر بكسرها وإراقة ما فيها، ثم لما استأذنوه في الإراقة أذن: فقالوا: أفلا نريقها ونغسلها؟ فقال: افعلوا، فدل ذلك على جواز الأمرين؛ وأن العقوبة بذلك لم تكن واجبة.

في كتاب "السياسة الشرعية" ناقش ابن تيمية مسألة تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي:

في كتابه "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية"، والمعروف باسم "السياسة الشرعية"، والذي بناه ابن تيمية على شرحه للآيتين ٥٨ و٥٩ من سورة النساء، وبين أن قول الله عز وجل في الآية ٥٨ (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (النساء:٥٨)، نزل في ولاة الأمور، وأن الله سبحانه أوجب عليهم أمرين: أولهما: أداء الأمانات إلى أهلها، وثانيهما: الحكم بالعدل، وهذان جماعُ السياسة العادلة، والولاية الصالحة.

أما أداء الأمانات ففيه نوعان: أحدهما الولايات: فخصص فصلا بعنوان (أنواع أداء الأمانات) وجعل القسم الأول منه للولايات وأوجب فيه على ولاة الأمور اختيار الأصلح، لأن الأصلح هو الأولى والأحق بالولاية،

> أوجب الله على ولاة الأمور أمرين:
> الأول: أداء الأمانات إلى أهلها.
> الثاني: الحكم بالعدل.
> وهذا جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة.

وجعل ابن تيمية القسم الثاني من الأمانات: الأموال، وتحدث فيها عن الديون الخاصة والعامة، ثم خصَّص فصلاً للأموال السلطانية تحدَّث فيها عن الأحكام المتعلقة بالغنيمة والصدقة والفيء (وهي كلها موضوعات اقتصادية تتعلق بمصادر الدخل للدولة الإسلامية في زمنه)، ثم خصَّص فصلاً أخيرًا للحكم بين الناس.

وبيَّن ابن تيمية الحالات التي يجوز فيها أن تتدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، ومنها تحديد الأجور، وإجبار ذوي الخبرة على القيام بالعمل، والإجبار على البيع والتأجير مقابل الثمن العادل في حالات الضرورة والحاجة.

كما تناول ابن تيمية بالدراسة موضوع التسعير وبين حكمه، وميَّز بين ما هو ظلم محرم وما هو عدل جائز، فقرر أن التسعير يكون جائزًا إذا تضمن العدل بين الناس مثل إكراههم على بيع ما يجب عليهم من المعاوضة بثمن العدل، وذهب إلى أن التسعير يكون واجبًا كما في حالة امتناع أرباب السلع عن بيعها مع حاجة الناس إليها (كما لو حدث تواطؤ بين البائعين وهو ما يعرف حديثًا بالكارتل).

والتسعير في هذه الحال كأصل لا يتضمن ظلم الناس أو إكراههم بغير حق على البيع بأقل من ثمن السلعة أو بثمن لا يرضونه (انظر: السياسة الشرعية: لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ).

وقد صنفت مصنفات خصيصًا لتعرض لجهد ابن تيمية في الاقتصاد الإسلامي، ومن الكتب التي عرضت لجهود ابن تيمية في الاقتصاد كتاب: (مبادئ الاقتصاد الإسلامي- نصوص اقتصادية مختارة من كلام ابن تيمية- أعدها ورتبها: د.عبد العظيم الإصلاحي، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٩).

ابن قيم الجوزيه يسير على نهج شيخه ابن تيمية ويبحث مسألة تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي:

على نهج شيخه ابن تيمية سار ابن القيم في كتابه "الطرق الحكمية"؛ حيث تحدث ابن القيم عن تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي من خلال جهاز الحسبة، فذكر مشروعيتها، كما بيَّن الوظائف الاقتصادية للمحتسب ومنها مراقبة الأسعار، كما تناول أحكام التسعير وكان له تميز واضح ومساهمات بارزة في هذا الموضوع.

كما تعرض ابن القيم للملكية الخاصة، وعرض لمسألة أشبه بالتي تُعرَف الآن بنزع الملكية للمنفعة العامة؛ حيث تعرض للملكية ومتى يجب على الإنسان أن يبذل ملكه لغيره، كما تعرَّض ابن القيم في مصنفاته لمفهوم الكسب والأحكام الواردة عليه، وفاضل بين مجالات الكسب المختلفة، كما تعرَّض أيضًا لتخصيص وتقسيم العمل وأهمية العمل، وذكر إمكانية مساهمة العمل مع عناصر الإنتاج الأخرى في العملية الإنتاجية، كما تناول الربا وعرض لأحكامه، وبيَّن الحكمة من عدم وضع حدّ للتعامل بالربا، كما عرض لبعض الحيل الربوية في المعاملات الاقتصادية، كما تناول ابن القيم في كتبه النقود ووظائفه وخصائص النقدين الذهب والفضة، فقد

فصل في الحديث عن ذلك، حيث تحدث عن دور النقود في الحياة الاقتصادية كوحدة حساب ووسيط في المبادلة، ثم تحدث بعد ذلك عن بعض أحكام النقود فيما يتعلق بالزكاة والربا. (انظر: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: أبـو عبـد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد؛ شمس الدين ابـن قيم الجـوزيـة (ت ٧٥١هـ)، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة، آثار الإمام ابن القيم وما لحقها من أعمال (٩)، تحقيق نايف بن أحمد الحمد، بإشراف د/ بكر عبد الله أبو زيد، طبع بتمويل مؤسسة الراجحي الخيرية، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة، ط١ ١٤٢٨هـ. والكتاب مطبوع في جزئين، وقد نال المحقق بهذا التحقيق درجـة الدكتوراه من كلية الشريعة بجامعة أم درمان).

تناول ابن القيم ظاهرة الفقر:

ابن القيم يتناول في كتابه "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" مسألة الفقر باستفاضة: تناول ابن القيم في كتبه أفكارًا اقتصادية كثيرة، فتناول ابـن القيم بعض الظواهر الاقتصادية التي لا ينتبه إليها كثير من المتخصصين كظاهرة الفقر والغنى، فناقش في كتابه "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين" مسألة الفقر باستفاضة، وعرض للتفاضل بين الغني الشاكر والفقير الصابر وأيهما أفضل لكثرة النزاع فيها بين الأغنياء والفقراء، واحتجاج كل طائفة على الأخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار؛ ورجَّح ما حكاه عن شيخه ابن تيمية في هذه المسألة، بأنَّه ليس لأحدهما على الأخـرى فضيلة إلا بالتقوى، فأيهما أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل، فإن استويا في ذلك استويا في الفضيلة.

الافتراء على ابن تيمية رغم تعقبه على ابن حزم في تكفير مخالف ما انعقد عليه الإجماع

في عصرنا الحاضر نجد هجمة شديدة على ابن تيمية ما بين قائل بأنه متشدد، وآخر ينسب إليه أنه المعين الرئيس والنبع الصافي للأفكار التكفيرية، وهذا زعم باطل يكفي للرد عليه تعقيب ابـن تيمية على ابـن حـزم الأندلسي الـذي يقول في مقدمة كتابه مراتب الإجماع وهو يتحدث عن حجية الإجماع: "أما بعد فإن الإجماع قاعدة من قواعد الملة الحنيفية يرجع إليه ويفزع نحوه، ويكفر من خالفه إذا قامت عليه الحجة بأنه إجماع. وإنا أملنا بعون الله عز وجل أن نجمع المسائل التي صح فيها الإجماع ونفردها من المسائل التي وقع فيها الخلاف بين العلماء، فإن الشيء إذا ضُمَّ إلى شكله وقُرن بنظيره سهل حفظه وأمكن طلبه وقرب متناوله ووضح خطأ من خالف الحق به..." (انظر: مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات: لأبي محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، بدون تاريخ، ص٧). فقد تعقب ابن تيمية على ابن حزم في قوله بكفر من خالف الإجماع إذا قامت عليه الحجة بأنه إجماع، وقال ابن تيمية: "إن العلماء لم يكفروا إبراهيم النظَّام لإنكاره للإجماع، واستشهد ابن تيمية بفعل ابن حـزم نفسه والـذي لم يكفر النظَّام على خطأ مقولته". (انظر: نقد مراتب الإجماع، لابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، دار ابن حزم- بيروت، الطبعة الأولى،١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ص٢٨٦)، وفي هذا النقل ما ينفي الافتراءات الباطلة الذي تنسب لابن تيمية أنه أصل ونبع الأفكار التكفيرية.

والحمد لله رب العالمين.

خلق عزيز

الحمد لله وحده، وأصلي وأسلم على من لا نبيَ بعده، نبينا محمد وآله وسلم. أما بعدُ، فإنَّ رسالة الإسلام رسالة خير وبر وسلام، ومبادئه مبادئ عدل وحبٌ ووئام، ويحثُ على التواد والتراحم، والترابط والتلاحم، ودلائل صدق هذه الرابطة، أن يشعر المسلم بإخوانه محققًا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «مثلُ المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». متفق عليه.

والتألمُ الحقُّ هو الذي يدفعُك إلى كشف ضوائق إخوانك، فلا تهدأ حتى تزول الغمة، وتنكشف الظلمة، حينئذ يستنير وجهك، ويرتاح ضميرك، فإن فعلت كنتَ ممن عناهم الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث، أن تتألم لألمه، وتحزن لحزنه، وتعينه على دفع كُربه، أما موتُ العاطفة وقلة الاكتراث وكأن الأمر لا يعني، فهو تنكرٌ لهذه الأخوة، فضلاً عن أنه جفاءٌ في الخلق، وجمودٌ في الطبع، وأنانية، والأنانية آفة قاتلة، وإذا سيطرت على امرئ محقت خيره وزادت شره، وجعلته يعيش في دائرة نفسه، لا يعرف غيرها، ولا يفرح ولا يحزن إلا لما يصيبه في نفسه وحده، أما إخوانه وأصحاب الضوائق فلا يعرفهم.

إعداد **عبده أحمد الأقرع**

أقول: وما أكثر نعم الله على عباده، وأعظم نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة أن بعث فيها رسوله الكريم محمدًا صلى الله عليه وسلم ليرشد إلى مكارم الأخلاق التي تحلى بها بشهادة الرب سبحانه: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (القلم: ٤)، ومنها: خلقُ الإيثار.

قال القرطبي رحمه الله: «الإيثار هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية رغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة». (الجامع لأحكام القرآن: ١٨/١٨)، وهذا لا يكون إلا من

خُلق زكي، ومحبة لله تعالى، ومقدمة على شهوات النفس ولذاتها.

فالمسلم متى رأى مجالاً للإيثار آثر غيره على نفسه، وفضله عليها، فقد يجوع ليشبع غيره، ويعطش ليروي سواه، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في هذه الخلق العزيز.

عنْ سهْل رضيَ الله عنْه أنَّ امْرأةً جاءتْ النَّبيَّ صلى الله عليْه وسلم ببُرْدةٍ منْسُوجةٍ فيها حاشيتُها أتــدْرُون ما الــبُرْدةُ؟ قالوا: الشمْلةُ، قــال: نعمْ، قالتْ: نسجْتُها بيدي فجئْتُ لأكْسُوكها فأخذها النَّبيُّ صلى الله عليْه وسلم مُحْتاجًا إليْها فخرج إليْنا وإنها إزارُهُ فحسَّنها فلانٌ، فقال: اكْسُنيها : ما أحْسنها، قال القوْمُ: ما أحْسنْت لبسها النَّبيُّ صلى الله عليْه وسلم مُحْتاجًا إليْها ثُمَّ سألْتهُ؟ وعلمْت أنهُ لا يرُدُّ، قال: إني والله ما سألْتُهُ لألْبسهُ إنما سألْتُهُ لتكُون كفني. قــال سهْلٌ: فكانتْ كفنهُ. (البخاري: ٣/١١٣، ١١٤).

هذا مثل من أمثال اتصافه صلى الله عليه وسلم بهذا الخلق الكريم.

وإيثاره صلى الله عليه وسلم لأهل الصفة:

قال صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه: «خذ فأعطهم». يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «فأخـذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشربُ حتى يــروى، ثم يرد عليّ القدح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسم، فقال: «أبا هرٍّ». قلتُ: لبيك يا رسول الله، قال: «بقيتُ أنا وأنت». قلتُ: صدقت يا رسول الله، قال: «اقعد فاشرب». فقعدتُ فشربت، فقال: «اشرب». فشربتُ فمازال يقول: «اشرب». حتى قلتُ: لا والـذي بعثك بالحق ما أجدُ له مسلكًا. قال: «فأرني». فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة. (البخاري: ٦٤٥٢).

وقد تأسى الصحابة الكرام برسول الله صلى الله عليه وسلم في الإيثار، فأثنى الله عليهم وأنزل فيهم، فقال سبحانه: «وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» (الحشر: ٩).

عَن أبِي هُرَيْرَة رضيَ الله عنْهُ قَالَ أتَى رَجُلٌ رَسُولَ الله صلى الله عليْه وسلم فقال: يا رَسُول الله أصابني الجهْدُ فأرْسلَ إلى نسائه فلمْ يجدْ عنْدهُنَّ شيْئًا فقال رَسُول الله صلى الله عليْه وسلم ألا رَجُلٌ يُضيِّفُهُ هذه الليْلة يرْحمُهُ الله فقام رَجُلٌ من الأنْصار فقال أنا يا رَسُول الله فذهب إلى أهْله فقال لامْرأته ضيْفُ رَسُول الله صلى الله عليْه وسلم لا تدَّخريه شيْئًا، قالتْ: والله ما عنْدي إلا قُوتُ الصِّبْية، قال: فإذا أراد الصِّبْيةُ العشاء فنوِّميهمْ وتعالي فأطْفئي السِّراج ونطْوي بُطُوننا الليْلة ففعلتْ ثُمَّ غدا الرَّجُلُ على رَسُول الله صلى الله عليْه وسلم فقال لقدْ عجب الله عزَّ وجلَّ أوْ ضحك منْ فلانٍ وفلانة فأنْزل الله عزَّ وجلَّ: «وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» (الحشر: ٩). (متفق عليه).

معنى مجهود: أصابني الجهد وهو المشقة وسوء العيش والجوع.

معنى: «رحله» مأواه في الحضر.

معنى «قوت صبياني» ما يعتادون الاقتيات به على عادتهم من الولع بالطعام. معنى: «فعلليهم» أشغليهم بشيء غير هذا الطعام. معنى: «طاويين» جائعين.

وهذا نوع آخر من الايثار فريد من نوعه:

عن عبْد الرَّحمن بْن عوْف رضي الله عنْهُ لمَّا قدمْنا المدينة آخى رسُول الله صلى الله عليْه وسلم بيْني وبيْن سعْد بْن الرَّبيع فقال سعْدُ بْنُ الرَّبيع إني أكْثرُ الأنْصار مالًا فأقْسمُ لك نصْف مالي وانْظُرْ أيَّ زوْجتيَّ هويت نزلْتُ لك عنْها فإذا حلَّتْ تزوَّجْتها قال فقال لهُ عبْدُ الرَّحْمن لا حاجة لي في ذلك هلْ منْ سُوقٍ فيه تجارةٌ. (البخاري: ٤/٢٨٨).

وهذا نوع آخر من الايثار الدال على الزهد وايثار ما عند الله، روى مالك الدار: أن عمر بن الخطاب أخذ أربعمئة دينار، فجعلها في صرة، فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تلَهَّ في البيت ساعة؛ تنظرُ ما يصنعُ؟ فذهب بها الغلامُ إليه، فقال: يقول لك أميرُ المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية! اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها. ورجع الغلامُ إلى عمر.

فأخبره، فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل، وتلَهَّ في البيت ساعةً حتى تنظرَ ما يصنعُ؟ فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أميرُ المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال رحمَه الله ووصله، تعالي يا جارية! اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ وقالت: نحنُ والله مساكينُ؛ فأعطنا، فلم يبقَ في الخرقة إلا ديناران، فدحى بهما إليها، ورجع الغلامُ إلى عمرَ فأخبره، فسُرَّ بذلك، فقال: إنهم إخوةٌ، بعضهم من بعض. (حلية الأولياء: ١/٢٣٧).

الله أكبر، ما أحوجنا إلى رجال كهؤلاء.

ولذلك قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا لمن حوله: تمنوا، فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا، فأنفقه في سبيل الله، ثم قال: تمنوا، فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا وزبرجدًا أو جوهرًا، فأنفقه في سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر: تمنوا، فقال: ما ندري يا أمير المؤمنين. فقال عمر رضي الله عنه: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان. (حلية الأولياء: ١/٢٣٧).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أُهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسُ شاة، فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليهم، فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول، فنزل: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» (الحشر: ٩). (الدر المنثور: ٨/١٠٧).

هذه هي الأخوة يحققون قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». متفق عليه.

ولقد أتى أبا هريرة رضي الله عنه رجلٌ. فقال: يا أبا هريرة، إني أريد أن أؤاخيك في الله، فقال أبو هريرة: وهل تدري ما حق الأخوة؟ قال: لا، عرفني، قال: إن من حق الأخوة ألا تكون أحق بدرهمك ولا دينارك مني. فقال الرجل: لم أبلغ هذه المنزلة. قال: فإليك عني. (منهاج المسلم: ص١٣١).

وقال أبو جعفر لأصحابه يومًا: أيُدخلُ أحدكم يده في جيب أخيه فيأخذ من ماله ما يريد؟ قالوا: لا. قال: فلستم بإخوان كما تزعمون. (مختصر منهاج القاصدين: ص١٠٠).

وقال بعض السلف: ما كنت لأقول لرجلٍ إني أحبك في الله فأمنعه شيئًا من الدنيا.

وقال بعضهم: إني لأستحي من الله أن أسأل الجنة لأخ من إخواني ثم أبخل عنه بدينارٍ أو درهم.

وهذا نوع آخر من الحب والإيثار سهل يسير والعمل به قليل. الدعاء: عن أم الدرداء قالت: كان لأبي الدرداء ستون وثلاث مئة خليل في الله، يدعو لهم في الصلاة، قالت أم الدرداء فقلت له في ذلك فقال: إنه ليس رجل يدعو لأخيه في الغيب إلا وكل الله به ملكين يقولان ولك بمثلٍ، أفلا أرغب أن تدعو لي الملائكة.

وعن أبي قلابة، أن أبا الدرداء مر على رجل قد أصاب ذنوبًا، فكانوا يسبونه، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب- يعني: بئر- ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله عز وجل الذي عافاكم. قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي. (صفة الصفوة: ١/٢٦٨).

وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون به خلفك وهو منفرد بحزنك مهتم فما قدمت وما صرت إليه يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى.

فحققوا أيها المؤمنون هذه الأخوة بالتحاب بينكم والتآلف، وحققوا إيمانكم بتحقيق ما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم: «من نفَّس عن مؤمن كربةً من كُرَب الدنيا نفَّس الله عنه كُربةً من كُرَب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبدُ في عوْن أخيه». (مسلم: ٢٦٩٩).

«رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» (الحشر: ١٠).

والحمد لله رب العالمين.

من الأحداث المهمة في تاريخ الأمة

معركة أجنادين

إعداد عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله وحده؛ صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وأشهد أن محمداً عبدُ الله ورسوله أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله؛ فأيده بنصره وبالمؤمنين، فصلاة ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فقد اخترت هذه المرة حدثًا بالغ الأهمية وقَع في خلافة الصديق أبي بكر -رضي الله عنه- في العام الثالث عشر من الهجرة، وفي شهر جمادى الأولى، ألا وهو معركة أجنادين التي وقعت بين المسلمين والروم، وتكمن أهمية هذه المعركة في كونها أولى المعارك الكبرى التي وقعت بين المسلمين والروم في الشام؛ حيث اعتبرها بعض المؤرخين قريبة الشبه بغزوة بدر الكبرى التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون ضد المشركين في العام الثاني الهجري. ووجه الشبه هنا هو انتصار المسلمين في بدر على المشركين مع قلة عددهم وعُدتهم فكانت غزوة بدر فاتحة الانتصارات، وكان لها ما بعدها، وكذلك معركة أجنادين نصر الله فيها المسلمين على الروم مع قلة عددهم وعُدتهم؛ فكانت فاتحة الانتصارات في الشام بين المسلمين والروم وكان لها ما بعدها من انتصارات في فتوح الشام مثل اليرموك وفتح دمشق، وغيرها.

سبب تسميتها:

وسبب تسمية هذه المعركة بأجنادين هو المكان الذي التقت فيه جيوش المسلمين وجيوش الروم، ودارت فيه رحى المعركة التي انتهت بهزيمة ساحقة لجيوش الروم حين قتل قرابة ثلاثة آلاف منهم، وفرّ الباقون، وقد دارت رحى هذه المعركة في مكان يقال له أجنادين في قرية تسمى عجور في منطقة شمال غرب الخليل، ويمر بجانبها وادي يسمى وادي السنط، واختار الروم هذا الموقع لقربه من بيت جبرين عاصمة أهم مقاطعة تابعة لهم في فلسطين، وكانت تضم: غزة، ومنطقة بئر السبع، ومدينة الخليل ومدينة القدس ومدينة الرملة، واختاره الروم ليكون مكان تجمع لجيوشهم، ولأنه ملتقى طرق عدَة ينتظرون تجمُع جيوشهم، ويبدو أن المسلمين باغتوهم بالقتال قبل استكمال استعدادهم فحققوا هذا النصر المبكّر الذي كان له أثره، والى التفاصيل:

أولا: عرض موجز لأحداث معارك الشام:

بعد ما حققته جيوش المسلمين من انتصارات في فتوح العراق عقد خليفة المسلمين أبو بكر-رضي الله عنه- العزم على توجيه جيوش المسلمين صوب الشام: لفتحها وتحريرها من استيلاء الروم عليها. ولكن الخليفة الراشد لم يوجه جيوش المسلمين دفعة واحدة بقيادة واحدة، بل وجْه جيوشا أربعة في اتجاهات مختلفة وقيادات متنوعة، وكلَف كل قائد بمهمة محددة إذا انتهى منها يساعد من يحتاج إليه في مكان آخر حتى يجتمع الجميع تحت قيادة واحدة، ويتوجهون فيما بينهم بالمشورة حتى إذا اختلفوا في أمر يرجعون فيه إلى الخليفة الذي يقوم بمتابعة الجميع ويوجّه القادة كلاً في موقعه، ويكون على اتصال بهم.

ثانيا: دعوة المسلمين إلى الجهاد وعقد الألوية:

قام أبو بكر بالتعبئة للجهاد وإعداد العدَة، وعقد الألوية لأربعة جيوش وجهها إلى الشام كالتالي:

١- جيش يزيد بن أبي سفيان:

وهو أول الجيوش التي توجهت إلى الشام، وكانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتحها ومساعدة الجيوش الأخرى عند الضرورة، وكان جيش يزيد في أول أمره ثلاثة آلاف ثم عززه الخليفة بعد ذلك حتى صار سبعة آلاف (راجع أبو بكر - للصلابي).

٢- جيش شرحبيل بن حسنة:

وقد حدّد أبو بكر-رضي الله عنه- لمسير شرحبيل ثلاثة أيام بعد مسير يزيد بن أبي سفيان، فلما مضى اليوم الثالث ودّع أبو بكر شرحبيل، وقال له: يا شرحبيل! ألم تسمع وصيتي ليزيد بن أبي سفيان؟ قال: بلى. قال: "فإني أوصيك بمثلها، وأوصيك بخصال أغفلت ذكرها ليزيد: أوصيك بالصلاة لوقتها، وبالصبر يوم البأس حتى تظفر، أو تقتل، وبعيادة المرضى وبحضور الجنائز، وذكر الله كثيراً على كل حال".

وكان جيش شرحبيل أربعة آلاف وأمره الخليفة أن يسير إلى تبوك والبلقاء ثم بُصرى. (وكانت وصية أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان طويلة وشاملة لآداب الجهاد والعلاقة بين القائد والجنود وبين الأعداء) أوردها ابن الأثير في كتابه الكامل (٢/٦٤-٦٥) تركت إيرادها هنا خشية الإطالة.

٣- جيش أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه:

وفي فتوح الشام للأزدي قال: "لما عزم الصديق على بعث أبي عبيدة بجيش دعاه وودّعه، ثم قال له: إسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له، ثم يعمل بما أمر به، إنك تخرج في أشراف الناس، وبيوت العرب، وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية، وهم يقاتلون اليوم على الحسبة والنية الحسنة: أحسن صحبة من صحبك، وليكن الناس عندك في الحق سواء، واستعن بالله، وكفى بالله معينًا، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً، اخرج من غد إن شاء الله) اهـ. وكان عدد هذا الجيش يتراوح ما بين ٣-٤ آلاف وهدفه مدينة حمص.

٤- جيش عمرو بن العاص رضي الله عنه

وكان تعداده يتراوح بين ٦-٧ آلاف، ووجهته فلسطين، وجّه أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاص بجيش إلى فلسطين، وكان الصّديق قد خيّره بين عمله الذي كان فيه أو يختار له ما هو خير له في الدنيا والآخرة. فقال عمرو بن العاص: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها فارم به.

ثالثا: صعوبات واجهت جيوش المسلمين بالشام:

واجهت الجيوش المكلفة بفتح بلاد الشام صعوبات على أرض الواقع من أهمها: كثرة عدد الروم، ودقة تنظيمهم وحصانة قلاعهم وحصونهم، وقد تمكن المسلمون من الحصول على معلومات دقيقة عن أعداد تلك الجيوش الرومية، وخططها للقضاء

على جيوش المسلمين واحدًا تلو الآخر، وراسل قادة الجيوش أبا بكر رضي الله عنه يخبرونه بالموقف العسكري نختار منها كتابًا واحدًا أرسله أبو عبيدة لأبي بكر وردُ أبي بكر عليه كما أورده صاحب كتاب التاريخ الإسلامي:

- نص كتاب أمين الأمة أبي عبيدة لأبي بكر: "بسم الله الرحمن الرحيم، إلى عبدالله، أبي بكر خليفة رسول الله، من أبي عبيدة بن الجراح: سلام الله عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره، أما بعد، فإنا نسأل الله أن يعز الإسلام وأهله عزًا متينًا وأن يفتح لهم فتحًا يسيرًا؛ فإنه قد بلغني أن هرقل ملك الروم قد نزل بقرية اسمها أنطاكية، وأنه بعث إلى أهل مملكته حشرهم إليه وأنهم نفروا إليه على الصعب والذلول، وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه: "بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛ فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه -يعني في مقامه في أنطاكية هروب من مواجهة المسلمين المباشرة، وهذا يدل على الخوف الشديد والرعب الذي يملأ قلبه-، وفتح من الله عليك وعلى المسلمين، وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته وجمعه لكم الجموع فإن ذلك ما كنا نتوقع، وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم، ويخرجوا من ملكهم بغير قتال، وقد علمت والحمد لله أنه قد غزاهم كثير من المسلمين، يحبّون الموت حبَ عدوهم للحياة، ويرجون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم، وعقائل أموالهم، الرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين، فالقهم بجنودك ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين؛ فإن الله معك، وأنا مع ذلك مُمدك برجال حتى تكتفي ولا تريد أن تزداد إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" (التاريخ الإسلامي للحميدي: ٢١٣/٩).

رابعًا: تأزم الموقف في الشام وحاجته إلى قيادة جديدة:

كانت قيادة الجيوش الإسلامية بالشام تتابع حركة الجيوش الرومانية، واستشعر القادة المسلمون خطورة الموقف فعقدوا اجتماعًا بالجولان لمناقشة الأمر، وكتب أبو عبيدة يشرح الأمر على الطبيعة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعندما استلم الرسالة كتب لأبي عبيدة ومن معه يأمرهم بالانسحاب إلى اليرموك والتجمع هناك، وقال لأبي عبيدة: بث خيلك في القرى والسواد وضيّق عليهم بقطع الميرة والمادة-أي: حاصرهم قليلاً- ولا تحاصروا المدائن حتى يأتيك أمري، فإن ناهضوك فانهض لهم-ابرز لهم-، واستعن بالله عليهم؛ فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثله". وجاء في رواية الطبري: "إن مثلكم لا يُؤتى من قلة، إنما من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه، واعلموا أنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره وخاذل من خذله" (تاريخ الطبري ٢١١/٤ بتصرف يسير).

وقد صدق في أبي بكر ظن كبار الصحابة عندما استشارهم في فتوح الشام؛ حيث قال له عثمان رضي الله عنه وأرضاه: "إنك ناصح لأهل هذا الدين، وانك عليهم شفيق؛ فإذا رأيت أمرًا علمنا أنه رشد وصلاح وخير؛ فاعزم على إمضائه غير ضنين ولا مُتّهم". ووافق عثمان على قوله هذا كل الحاضرين من المهاجرين والأنصار، وقالوا: "صدق عثمان".

وعندما سأل أبو بكر عليَ بن أبي طالب عن رأيه قال عليّ: "أرى أنك مبارك الأمر ميمون الرأي والمشورة، وانك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله"، فَسُرَ أبو بكر بهذا القول من عليّ رضي الله عنه، وقال له: بشرك الله بالخير.

فها هو أبو بكر يتابع الموقف مع قادة الجيوش في الميدان، وكأنه معهم بينما هو في المدينة ويشارك جنده الرأي والمشورة وينصح نصيحة الخبير بأرض الميدان والخبير كذلك بنفوس جنده وقادته وطبيعة الأعداء على السواء.

خامسًا: توجيه خالد بن الوليد من العراق إلى الشام:

رأى الخليفة الراشد أبو بكر رضي الله عنه أن الموقف في الشام يحتاج إلى إمداد عسكري آخر والأهم من ذلك أن الموقف المتأزم يحتاج لقيادة تجمع بين قدرة أبي عبيدة، ودهاء عمرو، وحنكة عكرمة، وإقدام يزيد، وأن يكون صاحب قدرة عسكرية فائقة مع قدرة على حسم المواقف، وصاحب دهاء وحيلة وإقدام وصاحب تجربة طويلة في المعارك، هذا كما ذكره صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام ص٣٥٩.

فوقع اختيار الصديق على خالد بن الوليد رضي الله عنه، ونقل الإمام ابن كثير في البداية والنهاية مقولة الصديق المشهورة: "والله لأشغلن الروم عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد".

وكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد

أن يتوجه فوراً من العراق إلى الشام لتولي قيادة الجيوش هناك وكتب في الوقت ذاته رسالة إلى أبي عبيدة يخبره فيها بتولية خالد عليه ويأمره فيها بالسمع والطاعة وبيّن فيها سبب تولية خالد فقال: "أما بعد، فإني قد وليتُ خالداً قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطع أمره، فأنا وليته عليك وأنا أعلم أنك خيرٌ منه، ولكني ظننتُ أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" (مجموعة الوثائق السياسية نقلاً عن الصلابي في كتابه أبي بكر).

ونلاحظ هنا أن الخليفة الراشد قدّم الكفاءة الحربية على سَبْق أبي عبيدة في الإسلام وتقواه وأمانته، لحاجة الموقف هذا إليها.

وكتب خالد إلى أخيه أبي عبيدة يقول في كتابه: (لأبي عبيدة بن الجراح من أخيه خالد بن الوليد: سلام عليك: فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره، أما بعد: فإني أسأل الله لي ولك الأمن يوم الخوف والعصمة في دار الدنيا، والنجاة من النار، فقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني فيه بالقدوم إلى الشام والقيام على جندها وتولي أمرها، ووالله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت فيه إليه، وأنت- رحمك الله- على حالك الذي كنت به لا يُعصَى لك أمرٌ ولا يُخالف لك رأيٌ ولا يُقطع أمرٌ دونك؛ فأنت سيّد من سادات المسلمين لا يُنكر فضلك ولا يُستغنى عن رأيك، تمّم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإياك من عذاب النار والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) المصدر السابق.

ولما قرأ أبو عبيدة رضي الله عنه رسالة خالد قال: "بارك الله لخليفة المسلين فيما رأى وحيّا الله خالداً بالسلام" (فتوح الشام للأسدي ص٦٨، نقلاً عن الحميدي).

وإني أنشدكم الله أن تتأملوا هذه الرسائل وهذه المواقف من هؤلاء النبلاء الذين ليس لهم غاية إلا مرضاة الله وإعلاء كلمته في الأرض، وتجردوا من الهوى وحبّ الدنيا وصدقوا وأخلصوا لله العمل، وبذلك استحقوا النصر على الأعداء في الدنيا وفي الآخرة حسن الثواب.

سادساً: أجنادين:

وصل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الشام، وساعد جيش شرحبيل في فتح بُصرى، وهو في طريقه، ثم اجتمع بقادة الجيوش في الشام ودرس معهم الموقف العسكري بدقة، ودرس موقف جيش عمرو بن العاص المحاصر بفلسطين والذي يريد الانسحاب ليلحق بإخوانه في اليرموك محاذرًا الاشتباك مع جيش الروم الذي يتعقبه ويحاول الفتك به.

وبعد دراسة متأنية للموقف رأى خالد أن أمامه أحد خيارين: أحدهما أن يسرع وينضم إلى جيش عمرو ويخوض وإياه معركة فاصلة مع جيش الروم في تلك المنطقة فيقضي على قوة الروم هناك الكبيرة والموجودة في المنطقة، والرأي الثاني أن يقف مكانه ويوعز لعمرو بالانضمام إليه ثم ينتظر قوات الروم القادمة من دمشق ليخوضا معًا -عمرو وخالد- معركة فاصلة، وقد فضّل خالد أن يأخذ بالخيار الأول؛ لأن التغلب على الروم في فلسطين من شأنه أن يُشتّت جيش الروم، ويُضعف قوته ويحفظ للمسلمين خط رجعتهم، ويُعزّز مركزهم القتالي مع الروم بعد ذلك.

وكان وصول خالد بجيشه في الوقت المناسب، فما إن اشتبكت قوات عمرو بالروم حتى انقضّ خالد بقواته، وجرت معركة عنيفة وكان لمهارة القائدين خالد وعمرو العسكرية دور كبير بإذن الله في تحقيق النصر الحاسم؛ حيث تم توجيه قوة اقتحامية اخترقت صفوف العدو حتى وصلت إلى قائد الروم فقتلته، وبمقتله انهارت مقاومة الروم، وهربوا في كل اتجاه وقد قُتل منهم ٣ آلاف، وكانت هذه أجنادين أولى المعارك الكبيرة في بلاد الشام.

ولما انتهى خبر الهزيمة إلى هرقل شعر بمدى الكارثة، وكان في حمص آنذاك، وكتب خالد إلى أبي بكر رضي الله عنه يخبره بهذا النصر الكبير في أجنادين، والذي يُعتبر باكورة الانتصارات الكبرى في الشام، بعد ذلك في اليرموك وفي فتح دمشق وبلاد الشام عمومًا، ولما وصل كتاب خالد إلى أبي بكر رضي الله عنهما فرح به واستبشر وقال: "الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقر عيني بذلك" (فتوح الشام للأزدي).

هذا ما تيسر إيراده في هذه العجالة، وإن كتب الله لنا البقاء واللقاء نفرد لقاءً خاصًا بالدروس المستفادة من فتوح الشام، وإلى لقاء آخر أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

التغيير: مفهومه وضوابطه

إعداد **د. عبد الوارث عثمان**
أستاذ الفقه المقارن جامعة الأزهر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن التغيير سُنَّة حتمية من سُنَن الحياة، والتغيير واقع يجب أن نعيشه ونتقبله، بل ونسعى إليه في مختلف مجالات الحياة، وأن نعمل على الاستفادة منه في الانتقال من الواقع المعاصر للأمة الإسلامية إلى مستقبل أكثر إشراقًا وتميزًا، وقد خلق الله تعالى الكون وجعل التغيير واحدًا من القوانين التي تحكمه، وقانونًا من القوانين التي تنظِّم علاقة مكوناته مع بعضها البعض، بل وأكد الله تعالى في أكثر من آية في القرآن الكريم أن دوام الحال-خاصة فيما يتعلق بالإنسان- هو أمر غير وارد البتة، وهو ما تفهمه من قول الله تعالى: (وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ) (آل عمران: ١٤٠). فهذه السُّنَّة ثابتة لا تتخلف أبدًا، فالله يرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويرزق نعمًا، ويحرم أخرى، ويغني قومًا ويُفقر آخرين، ويُقوِّي أناسًا ويُضعف آخرين وهكذا.

ولا بد أن نعلم أن الانتقال من وضع إلى وضع لا يمكن إلا بسبب. وقانون الله لا يحابي أحدًا. فإذا غيَّر القوم ما بأنفسهم من سوء غيّر الله حالهم ونفذت سنته فيهم. فحدوث التغيير من الله مترتب على حدوثه من البشر، إنْ حسنًا فحسنٌ، وإنْ سوءًا فسوء.

وقد ذكرت الآية تغييرين: الأول يحدثه الله، كما في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ) (الرعد: ١١)، والثاني يحدثه الناس: (حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد: ١١)، وهو في الحقيقة يكون إلى الأحسن وقد يكون إلى الأسوأ. فالله يغيّر ما بقوم من الهزيمة والضعف إلى نصر وتمكين إذا غيَّروا ما بأنفسهم من بُعد عن دينه، إلى تمسُّك بدينه والعكس بالعكس، فهم الذين يختارون لأنفسهم، ويتحملون النتيجة والمسؤولية. فالنِّعم والنِّقم والخيرات والويلات، لا تتأتى هكذا دون سبب، وإنما هي منوطة بأسباب، وأحوال معينة.

والذي نحن بصدده التغيير الإيجابي البنّاء الذي نادى به كتاب الله تعالى وقام عليه الإسلام. فلقد أخذت فكرة "الحق في التغيير حيزها الكامل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فمن ذلك قوله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران: ١١٠)؛ حيث ارتبطت خيرية أمة الإسلام بتحقيق هذه المهمة، التي تتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو في ذاته جوهر التغيير البنّاء الذي حثّ عليه القرآن الكريم.

> لكن النبي عليه الصلاة والسلام اغتنم الفرص، واستفاد من المواقف، واستثمر الزمن، وجيّش الطاقات، ووظف العقول واستعمل الحكمة وهدهد العواطف، وأشبع الأشواق، ولفت إلى الغايات وقاس الأمور بمقاييسها السليمة.

وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم معالمه عمليًا وواقعيًا عندما قام فعليًا بتبليغ رسالة الإسلام الخالدة والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخُلقه العظيم وسلوكه الكريم وصفاته التي بلغت أعلى درجات الكمال البشري. وإذا كان التغيير سُنَة ربانية مؤكَدة، فماذا عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم في التغيير؟

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في التغيير:

أولاً: إن الرسول صلى الله عليه وسلم سلك طريق التغيير بالسنن الكونية والاجتماعية والنفسية والعقلية. واستعمل كل الملكات وكل الحواس والإمكانات والأساليب في دعوة الناس إلى دين التوحيد، ونقلهم من الظلمات إلى النور، سهر الليالي، وقطع الفيافي والقفار، واستغل كل جمع وكل موسم وكل قرابة وكل صلة وكل موقف. ولم ينتصر بكلمة "كن"، والله قادر على نصره وتمكينه بها. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف الواقع فتعامل معه، ووعى التقاليد فوعاها، وفهم العقول فأرشدها وحاجْها، وقدَّر المصاعب، وعرف العقبات، وأعد العدة ولم يترك شيئًا للمصادفات أو الظروف.

لكنه عليه الصلاة والسلام اغتنم الفرص، واستفاد من المواقف، واستثمر الزمن، وجيَّش الطاقات، ووظف العقول واستعمل الحكمة وهدهد العواطف، وأشبع الأشواق، ولفت إلى الغايات وقاس الأمور بمقاييسها السليمة في السر والعلن، في الإعداد والاستعداد، في السلْم والحرب فأقدم عندما كان الإقدام حزمًا وعزمًا، وهادن عندما كانت

المهادنة كسبًا وفتحًا، وانتصر بالحجة، وفاز بالمنطق، ووجّه بالهداية، وأبهر بالقدرة وفتح بالتعاليم، لم يقهر النفس أو يسخر منها أو يكرهها على شيء، بل كان حريصًا على الناس، رؤوفًا رحيمًا، ليس بفظ ولا غليظ، ولا قاسي القلب، لم يساوم على الحق أو يماطل فيه وإن كان يرتاد له ويسلك أفضل السبل لقبوله والإقناع به.

ثانيا: عرف الرسول صلى الله عليه وسلم أن أُسس التغيير هو الرجال فكان لا بد له من إيجادهم وتجميعهم حول دعوته، فشمّر عن ساعدي الجد، ونزل إلى الميدان الحقيقي، الذي به تنتصر الدعوات وتفوز الأمم، وتشاد الصروح، وترتفع المُثل والغايات.

وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلتقي في الميدان بأعداء كثر، وأن ينتصر في معارك متعددة، معارك في داخل نفوس الجاهلية، ومعارك وسط المجتمع ودروبه، ومعارك خارجية متربصة حتى يستطيع أن ينتزع الرجال. فمعارك الجاهلية بقسوتها وصلفها وغرورها وعنصريتها وتقاليها وعقائدها، ومظالمها ومجونها، ووحشيتها وطبقيتها وأهوائها، معركة الديانات الفاسدة، بما لها من سدنة وكهنة وأحبار ورهبان، تمر سواء في الخداع والكذب والضلال.

> “ ربّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال حتى كانوا أكرم الناس نفسًا وأتقاهم قلبًا وأفضلهم سريرة وأطهرهم يدًا، وأشرفهم ذيلًا، وأوصلهم رحمًا، وأحنهم عاطفة وأعفهم لسانًا، وأصدقهم لهجة. ”

كل ذلك وغيره يحتاج في الداعية إلى ثلاثة عناصر: إيمان وصبر ووقت، وقد وجّه القرآن الكريم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تلك العناصر، وأكّد عليها في كثير من آياته، قال الله تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) (المزمل: ١-٥)، ومنها قوله تعالى: (فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ) (الأحقاف: ٣٥).

وانتصر الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المعارك بإيمان وصبر وأناة، حتى كوّن الأمة وانتصر بها وانتصرت به وحملت الهداية وجاهدت في سبيلها.

ثالثا: عرف الرسول صلى الله عليه وسلم أن تربية الرجال هي أساس قوتهم وسر عظمتهم واتحادهم وتآلفهم وتآخيهم هو لُبّ سعادتهم وعزتهم. فربّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجال حتى كانوا أكرم الناس نفسًا وأتقاهم قلبًا وأفضلهم سريرةً وأطهرهم يدًا، وأشرفهم ذيلًا، وأوصلهم رحمًا، وأحنهم عاطفة وأعفهم لسانًا، وأصدقهم لهجة، فكانوا صورة صادقة لدعوتهم ومثلًا حيًا لقرائنهم وأنموذجًا فريدًا لرسالتهم وقدوة طيبة، وتاريخًا عطرًا، وشهادة واضحة على عظمة الهداية وصدق الداعي، وجلال التعاليم الربانية، وربانية المنهج.. أشاد القرآن الكريم بهم في رجولتهم وثباتهم.

رابعًا: أظهرت لنا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن تاريخ العظماء إبداع ونبوغ وجهاد وكفاح وبذل وعطاء وهداية وإرشاد وقيادة وحكمة ورحمة وعدالة، إن هذا الإبداع وهذه الأوصاف كما تتحقق في خلقه العظيم وفي سيرته تتحقق كذلك في منهجه ورسالته.

وقد رسمت لنا السيرة العطرة صورة العظمة الحقيقية، وبيّنت لنا معالم الريادة الصحيحة، وأظهرت بهتان العظمة المزيفة وضلال الريادة المغشوشة التي بُلي التاريخ بها، واكتوت الأمة بنيرانها، وكما ذكرنا القرآن الكريم بالصنفين وتلا علينا الرسول صلى الله عليه وسلم آيات الفريقين.. تاريخ الهداة وتاريخ الطغاة.. تاريخ

المصلحين وسيَر الفاسدين المفسدين، الذين أوردوا أنفسهم وأممهم الحتوف والمهالك بذنوبهم وجرائمهم، وصدق الله العظيم: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (العنكبوت: ٤٠).

مفهوم التغيير:

التغيير لغة: يشير مصطلح التغيير لغةً إلى إحداث شيء لم يكن قبله، وتغيير الشيء عن حاله: تحويله، وغيَّره: حوَّله وبدَّله كأنه جعله غير ما كان، أو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى، فهو يدور على أصلين: التغيير والتغير.

والتغيير آلية شعورية إرادية عن وعي وقصد، ترمي إلى إحداث تغيير محدد، ونتائجه تكون محسوبة قدر المستطاع والخلل في هذا التحول يكون في مساحة ضيقة يسهل السيطرة عليها.

أما التغير فهو: آلية لا شعورية، يتحول الشيء فيها من حال إلى حال بصورة فجائية وقاطعة وتترتب نتائجه عن مدى ما سوف يحالفه من ظروف محيطة به.

ولقد جاء مصطلح التغيير في القرآن في أربعة مواضع مختلفة في سور مدنية النزول: أولها في سورة النساء؛ قال تعالى: (وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ) (النساء: ١١٩)، وهو ما يحدثه الإنسان من تغيير في خلق الله بسبب غواية إبليس كما أشارت الآية.

وقد جاء أيضًا في سورة محمد، قال تعالى: (مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ) (محمد: ١٥)، فيما وعد الله به عباده المؤمنين.

فيما جاء في سورة الأنفال: قال تعالى: (مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ) (الأنفال: ٥٣) في إشارة إلى تغيير نعمة الله على عباده، وأنهم قابلوا نعمه بالكفر والفسوق والعصيان. فيما جاء في سورة الرعد بمعنى تغيير ما بأنفس القوم إلى الأفضل والأحسن وهو المراد شرعًا؛ حيث يقول الله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ) (الرعد: ١١).

ويشار هنا إلى أن التغيير في القرآن الكريم جاء على وجهين: تغيير صورة الشيء دون ذاته، أو تبديل الشيء بغيره، التي يعبَر عنها في المفهوم الإسلامي بتبديل العناصر الفاسدة السائدة في المجتمع، ثم يعقبها عملية أخرى هي تنمية هذا الجوانب ودعمها.

هذه العملية تُبنَى على إيجابية مستمرة لا تقف عند البناء فحسب؛ بل وتمنع الهدم أيضًا؛ قال تعالى: (وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) (الأنفال: ٢٥)، وهو ما دلت عليه صورة العصر؛ قال تعالى: (وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ) (العصر:١-٣)؛ حيث اعتبرت أن الإيمان حقيقة إيجابية متحركة، كان العمل الصالح- الذي يمثل دائرة التغيير- هو الثمرة المؤكدة لهذا الإيمان فلا يمكن أن يظل الإيمان في النفس خامدًا لا يتحرك، وإلا كان إيمانًا مزيفًا أو ميتًا، كما أن الوقت الذي يُمثل حركة الحياة إن لم يتحول إلى انبثاق للطاقات في عملية مستمرة مرتبطة بديمومة الحياة؛ فإن الخسارة التي أخبرت بها سورة العصر هي النتيجة الحتمية لهذا الإنسان.

ويمكن القول: بأن التغيير هو إصلاح حال القوم بتغييرهم من حالة سيئة إلى الحالة الحسنة، وتغيير المنكر إلى معروف، وإزالة كل شرك وكفر وظلم، وإحلال الإيمان بالله وحده، وإقامة شرعه مكانهم: بإقناع العقول، واستمالة القلوب وإمتاع النفوس بما فُطِرَتْ عليه من مبادئ رسالة الإسلام الخالدة، وبكل وسيلة شرعية أمرنا الله ورسوله بها.

وأسأل الله التوفيق والسداد.

واحة التوحي

من نور كتاب الله

احذر نشر الرذائل والشرور

قال الله تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (النور:١٩).

أخطاء لغوية

صِحافة: مصدر للفعل: صَحُف، مثل زراعة، صناعة، كتابة، تجارة، فالصواب كسر الصاد، والخطاء أن نقول: صَحافة، بفتح الصاد.

من دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم

عن قَتادة بن النُّعمان، أنَّه أُصيبتْ عينُه يوم بدرٍ، فسالت حدقتُه على وجْنتِه، فأرادوا أنْ يقطعوها، فسألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لا. فدعاه، فغمزَ حدقتَه براحتِه، فكان لا يدري أيَّ عينَيه أُصيبتْ. (دلائل النبوة للبيهقي وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣٢).

حكم ومواعظ

عن علي رضي الله عنه قال: "أشدُّ الأعمال ثلاثةٌ: إعْطاءُ الحَقِّ من نَفْسِكَ، وذِكْرُ الله على كُلِّ حالٍ، ومُواساةُ الأخِ في المال" (حلية الأولياء ١/ ٨٥)، والمواساة في المال: إقراضه أو التصدَّق به.

من حكمة الشعر

قال المتنبي في الوفاء للصديق وحفظ أسراره:

وإفشاء ما أنا مستودع ..... من الغدر، والحُرّ لا يغدر
إذا ما قدرت على نطقه ..... فإني على تركها أقدرُ

إعداد : علاء خضر

من فضائل الصحابة:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: "كُنْتُ مع النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلَّم في الغار، فرأيتُ آثارَ المشركين، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، لو أنَّ أحدَهُم رفَعَ قدمَهُ رآنا، قال: "ما ظنُّك باثنينِ اللهُ ثالثُهُما" (صحيح البخاري: ٤٦٦٣).

من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
الرفق من أفضل الرزق

عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "إنه من أُعطي حظه من الرِّفق فقد أُعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وحسنُ الخُلق وحسنُ الجوار يعمران الدِّيار ويزيدان في الأعمار، ومن حُرم حظه من الرِّفق حُرِمَ حظه من خيري الدُّنيا والآخرة" (السلسلة الصحيحة ٢/٤٩).

من جوامع الأدعية
دعاء النبي صلى الله عليه وسلم عند الجنازة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى على جنازة؛ قال: اللهمَّ اغفر لحيِّنا وميِّتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، اللهمَّ! من أحييتَه منا فأحيِه على الإسلام، ومن توفيتَه منا، فتوفَّه على الإيمان، اللهمَّ! لا تحرمْنا أجره، ولا تضلنا بعدَه" (صحيح ابن ماجه ١٢٢٦).

من الطب النبوي

عن سلمى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما كان أحدٌ يشتكي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: وجعًا في رأسه إلا قال: احتجم، ولا وجعًا في رجليه، إلا قال: اخضبْهما» (سنن أبي داود ٣٨٥٨ وحسنه الألباني).

من أقوال السلف

قال الحسن البصري رحمه الله: «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يُفسد أكثر مما يُصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضروا بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا» (جامع بيان العلم وفضله ١/٥٤٥).

أثر السياق في فهم النص

(١٢٩)

حجاب المرأة المسلمة

(٣٩)

إعداد **د. متولي البراجيلي**

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فما يزال الحديث متصلاً عن أثر قرائن السياق على أدلة الحجاب، وقد قسمت أدلة الحجاب إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى: أدلة القرآن. المجموعة الثانية: أدلة السنة. المجموعة الثالثة: الآثار عن الصحابة ومن بعدهم.

ولقد انتهيت بفضل الله تعالى من أدلة القرآن، وبدأت في أدلة السُّنَّة، ووصلت إلى الحديث الثالث عشر، حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في العيد وأمره النساء بالتصدق، وفيه: وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخ (الخواتيم العظام) والخواتيم في ثوب بلال (متفق عليه).

وفى رواية:.. فرأيتهن يهوين بأيديهن يقذفنه... (صحيح البخاري). وفى رواية عن جابر رضي الله عنه: فقامت امرأة من سطة النساء سفعاء الخدين (في خديها تغيُّر وسواد). فقالت: لمَ يا رسول الله؟ قال: "لأنكن تكثرن الشكاة"؛ أي: الشكوى (صحيح مسلم).

وقد رأينا بعض القرائن حول الحديث:

١- في توجيه قول ابن عباس رضي الله عنهما: "فرأيتهن يهوين بأيديهن".

٢- في توجيه قول جابر رضي الله عنه: "فقامت امرأة من سطة النساء سعفاء الخدينِ"؛ فوصف جابر رضي الله عنه وجهها. فاستدلَّ فريقٌ من أهل العلم على جواز إظهار وجه المرأة، وأجيب عن ذلك بإجابات:

أ- أن تكون هذه المرأة من القواعد من النساء، وقد تكلمت عن هذا في الحلقة السابقة.

ب- أن تكون هذه القصة قبل نزول آيات الحجاب، ورد الشيخ الألباني بأنِ هذه القصة كانت بعد نزول آيات الحجاب مستدلا بحديثين عن أم عطية رضي الله عنها؛ أحدهما في الأمر بلبس المرأة للجلباب إذا خرجت، والثاني: آية المبايعة وأنها كانت في سنة ست، بعد نزول آيات الحجاب. وذكرت أن ما ذهب إليه الشيخ الألباني يرد عليه إيرادات: أن الجلباب كان معروفا لدى نساء العرب عند خروجهن وجاءت الآية بالأمر بإدنائه.

وأضيف: بأن الأمر بخروج النساء لصلاة العيد كان للمبايعات، وهن اللواتي هاجرن بعد صلح الحديبية

—أي: بعد نزول آيات الحجاب—، لكن ذلك لا يلزم منه أن يكون الأمر لهن بالخروج لصلاة العيد هو بداية الأمر لعموم النساء بالخروج لصلاة العيد، بل غاية ما فيه أنه أمر للمبايعات، من ضمن مجموعة أوامر ونواهٍ أُخذَتْ عليهن.

ج- أن يكون الجلبابُ قد انحسر عن وجهها بفعل الهواء.

لكن هذا مجرد احتمال بلا دليل، وكيف لجابر رضي الله عنه أن يصف وجه امرأة انحسر الجلباب عن وجهها في حديث عام، وإن كان لم يعينها، لكن لا شك أنها كانت معلومة بين الصحابيات، ثم إن هناك من العلماء مَن تتبَّع مَن تكون هذه المرأة كالحافظ ابن حجر، الذى قال: إنها ربما تكون أسماء بنت يزيد.

٤- تفرّد جابر رضي الله عنه —ممن رووا الحديث— بوصف وجه المرأة في قصة صلاة العيد، لكنْ رؤية وجه المرأة ووصفه بذات وصف جابر ورد في قصة أخرى من حديث أبى سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ألا عسى أحدكم أن يخلو بأهله ثم يُغلق بابًا ثم يرخى سترا، ثم يقضي حاجته، ثم إذا خرج حدّث أصحابه بذلك، ألا عسى إحداكن أن تغلق بابها، وترخي سترها فإذا قضت حاجتها حدّثت صواحبها، فقال امرأة سفعاء الخدين...(رواه البزار، وحسنه الألباني، انظر صحيح الترغيب ٢/٤٥٣-٤٥٤).

وورد في رواية لهذه القصة أن النساء كنّ قعودًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني لسن في الخلاء كصلاة العيد، وهذا يرد على احتمال —سبق ذكره- أن الهواء ربما حسر جلبابها عن وجهها في مصلى العيد. وقد وصف أبو سعيد وجه المرأة بذات وصف جابر، فهل كانت هي امرأة واحدة؟ ربما.

٥- صغر سنّ ابن عباس رضي الله عنهما، وبلال كان عبدًا، يعني لا حرج عليهما في رؤية النساء كاشفات الوجوه. وهذا معناه لمن ذهب إليه أن النساء كن كاشفات الوجوه، والا فما دلالة الاحتجاج بصغر سن ابن عباس وعبودية بلال. ثم إن ابن عباس رضي الله عنهما كان مميزًا - فليس له أن يدخل على النساء. وبلال كان حرًا رضي الله عنه ولم يكن عبدًا؛ إذ حرَّره أبو بكر رضي الله عنه عندما اشتراه.

٦- عدم ثبوت أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى وجه هذه المرأة، وأقرها ولم ينكر عليها. وهذا يبقى مجرد احتمال، هل رآها النبي صلى الله عليه وسلم أم لم يرها؟ مع أن الأقرب للاحتمالين أن النبي صلى الله عليه وسلم رآها؛ لأنها كانت توجّه الكلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستمع إليها.

الحديث الرابع عشر:

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن الفضل بن عباس رضي الله عنهما قال: إن امرأة من خثعم استفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع (يوم النحر)، والفضل بن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الفضل رجلاً وضيئًا، فأخذ الفضل ابن عباس يلتفت إليها، وكانت امرأة حسناء (وفي رواية وضيئة): فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حُسنها (وتنظر إليه) فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر (الحديث في الصحيحين وغيرهما، وله روايات انظرها في جلباب المرأة المسلمة صـ٦٢).

القرائن حول الحديث:

في قوله: "وكانت امرأة حسناء وضيئة".

وقد استدل ابن حزم من الحديث على جواز كشف وجه المرأة (انظر المحلى ٢/٢٤٨). وكذلك استدل الشيخ الألباني على جواز كشف الوجه (انظر هامش جلباب المرأة المسلمة صـ ٦٣-٦٤، وكذلك الشوكاني انظر نيل الأوطار ٦/١٣٥).

وأجيب على الذين استدلوا بالحديث على جواز كشف الوجه بأجوبة منها:... أو كان ذلك قبل نزول الأمر بإدناء الجلابيب (انظر فتح الباري ٤/٧٠). وبقرينة روايات الحديث التي فيها أن قصة الخثعمية إنما وقعت في حجة الوداع بعد نزول آيات الحجاب بسنوات.

وأجاب الشيخ الشنقيطي عن ذلك بإجابات:

أ- أنه لا يلزم من وصفها بأنها حسناء أو وضيئة، أنها كانت كاشفة عن وجهها، بل قد ينكشف عنها خمارها من غير قصد.

ب- وقال: أو يكون عرف حُسنها، وقد رآها قبل ذلك.

ج- وقال: إن الحسن والوضاءة قد يُعرفان من غير الوجه من حسن القوام أو من رؤية البنان فقط.

د- وقال: إن الخثعمية كانت محرمة، وإحرام المرأة في وجهها وكفيها.

هـ- وأن ابن عباس راوي الحديث لم يكن حاضرًا.. وإنما روى الحديث من طريق أخيه الفضل، وهو لم يقل له أنها كانت كاشفة عن وجهها. (انظر أضواء البيان ٦/٢٥٤-٢٥٦).

ويرد على كلام الشيخ الشنقيطي إيرادات:

أ- أن وصف المرأة بالحسن أو الوضاءة لا يكون إلا من خلال وجهها، والعلماء الذين قالوا بوجوب تغطية وجه المرأة، من استدلالاتهم أن جمال المرأة في وجهها، ومنهم الشيخ الشنقيطي فقد قال: مع أن الوجه هو أصل الجمال (انظر السابق).

وأما قوله بانكشاف خمارها عن غير قصد منها.. قلت: لو انكشف خمارها فجأة وسارعت بالتغطية، وهذا الوقت في الغالب يكون لمحة سريعة فهل يكرر الفضل النظر إليها ويعرف حسنها ووضاءتها؟ نعم قد يقال: إنه لو رأى وجهها سريعًا قد يعرف حسنها ووضاءتها.

ب- قوله: ويحتمل أنه كان يعرف حسنها قبل ذلك. قلت الشيخ قال: ويحتمل، وليس بين أيدينا دليل –فيما أعلم- على ذلك.

ج- قوله ليست في روايات الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم رآها كاشفة عن وجهها. قلت: فلماذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل كي لا ينظر إليها، واحتمال أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرها وهي كاشفة عن وجهها – مع أنها تسأله وتوجه الكلام له-، أرى ذلك بعيدًا.

د- قوله بعدم حضور ابن عباس للحديث. يقول الترمذي: سألت محمدًا يعني البخاري عن حديث الفضل، فقال: أصح شيء فيه ما روى ابن عباس عن الفضل، والحافظ ابن حجر يقول في الفتح باحتمال أن سؤال الخثعمية وقع بعد رمي جمرة العقبة فحضره ابن عباس، فنقله تارة عن أخيه لكونه صاحب القصة، وتارة عما شاهده، ثم استدل على أن سؤال الخثعمية وقع عند المنحر بعد الفراغ من الرمي (انظر فتح الباري ٤/٦٧، وما استدل به الحافظ ابن حجر من أن القصة وقعت بعد رمي جمرة العقبة رواه أحمد في المسند ح ٥٦٢، ح ١٣٤٨، وقال الأرناؤوط حسن، والترمذي ح ٨٨٥، وقال الألباني: حسن، والطبري في التفسير ح ٣٨٢٧، ٣٨٢٨).

هـ - قوله: إن المرأة كانت محرمة وإحرام المرأة في وجهها وكفيها... فكشفها عن وجهها إذا لإحرامها، لا لجواز السفور. قلت: سبق أن ذكرت في -النقطة السابقة- الأحاديث التي وردت أن سؤال الخثعمية كان بعد رمي الجمرات، أي بعد التحلل من الإحرام، وبالتالي فهي لم تكن محرمة.

و- أما قوله: ولماذا الفضل فقط هو الذي وصف المرأة، مما يدل على أن الصحابة لم يروها أو لم ينظروا إليها لغض أبصارهم. قلت هي تأتي وتسأل النبي صلى الله عليه وسلم عند المنحر، والنبي صلى الله عليه وسلم دائما محاطا بأصحابه وهو القائل لهم: "خذوا عني مناسككم". لكن لا يلزم لكل من رأى القصة أن يصف التفاصيل، وهذا معلوم من الروايات المتعددة للحديث الواحد، وكيف يصف حسنها ووضاءتها وهو مأمور بغض البصر، لكن الفضل أو ابن عباس وصفا ذلك لأن مقتضى الحديث يستدعي ذلك، فلماذا يكرّر الفضل النظر إليها.

قال الشيخ السندي: "لا حجة في الحديث للذين يقولون بجواز كشف الوجه والكفين؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أنكر على الفضل ابن عباس إنكارًا باتًا بأن لوى عنقه وصرفه إلى جهة أخرى، وكان في هذا الصنيع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنكار واضح لأنه أنكر باليد" (انظر ثلاث رسائل في الحجاب صـ ٨٣).

قلت: ولم لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على الخثعمية كشف وجهها –إن كان هذا غير جائز في حقها– وسكوته صلى الله عليه وسلم يُعد إقرارًا لها، فهل يُنكر صلى الله عليه وسلم على الفضل وحده، بينما كان نظر الفضل للخثعمية بسبب كشف وجهها الوضيء، ولا ينكر على الخثعمية نفسها، ولم أقف –فيما أعلم– من روايات الحديث على أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر عليها. والله أعلم.

وللحديث بقية. والحمد لله رب العالمين.

أركانُ النّجاة

حِفظ الذِّمام والأَخْذُ بالزِّمام

إعداد **د. عماد محمد علي عيسى**

المفتش بوزارة الأوقاف

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فضلُ السّائل وشرفُ السُّؤال:

فإن سؤال الصحابي عقبة بن عامر رضي الله عنه: "ما النجاة؟" يكاد يجمع الدين كله، ويلخص الهدف من الحياة، والغاية من تحقيق الأعمال وتحصيل الإيمان والهداية، ولا يصدر هذا السؤال إلا من ذوي العقول الكاملة والنفوس الفاضلة؛ لأنه يدل على همة جليلة لتحصيل الأمر الجليل، ونيّة جميلة لوُرود المورد السَّلسبيل، كما يدل على علوّ همّة صاحب هذا الغرض المَوجود، وقمّة المَطلب الأشرف المَقصود، وقد كان هذا السؤال المختصر الصريح الصحيح من غير إطناب ولا إيماء ولا تلويح، بل بإيجاز بليغ وتصريح، ولا ريب أنّ هذا من المَعونة بالتّوفيق، والهداية إلى الحق من أقرب طريق، فأين هذا ممّا نراه من التجنّي والتحكّم، وإصدار قولٍ أو سؤلٍ من غير تأمل ولا تدبُّر.

ولا شكّ أنّ التجوُّلَ في أفياء هذا السؤال، والتأمُّل في معاني هذا الكلام مَهْمَا أطلْنا الحديث عنه وأجلنا القول فيه فلن نعطيه حقه ولن نوفيه قسطه.

ومن أطال النظر في كلام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد على كلامهم من مسحات النّبوة شيئًا كبيرًا لأنهم استضاؤوا بنُورها، واقتَبسوا من مشكاتها، لذا اكتست كلماتهم سؤالًا وجوابًا، وسردًا وعرضًا، وجمالًا وجلالًا، وحلاوةً وطلاوة، وأصبحت حكمًا مأثورة:

رأيُك ممّا خطبت أعلى
لا زلت للمكرمات أهلا
صلُبْتَ عودًا ودمتَ جودًا
وفُقتَ فرعًا وطبْتَ أصلا
لا أستطيع العَطاء حِمْلًا
ولا أطيق السؤال ثُقلا

قصرتُ عن منتهاك ظنًّا
وطُلتَ عمّا ظننتُ فعلا
يا رُجمةَ الدّهر والمعالي
لا لقيَ الدّهرُ منك ثُكلا

ولعَمْر الحقّ إنّ المرء المؤمن الإيمان الكامل ليُحسُّ بصفاء هذه الكلمات، ونقاء تلك العبارات حتى يشتاق أشدّ الشّوق إلى سير أصحابها وسيرة أربابها، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجمعنا بهم في الجنة العالية وجعلها من أوّل وهلة مأوانا ومأواهم:

ونادتْني الأشواقُ مهلاً فهذه
منازلُ مَن تهوى فدونك فانزلِ
وخذْ بنعيم قد صفا لك شربُه
ودَعْ ما سوى الأحباب عنك بمعزلِ

الجوابُ المُحكم والقول المعلم:

أما الجواب فقد أجاب عليه النبي صلى الله عليه وسلم جوابًا يوجب اليقين، ويوضح الحق المبين، ويشرح صدور الخائفين، ويؤمن روعة القلقين، ويفتح باب الأمل للقانطين، ويهيّج على مواصلة العمل من الجادّين، ويُرغم أنوف المعاندين، ومهما قلتُ عن هذا الجواب المُحكم، وأيًا ما كان الحديث عن القول الصادر من النبي المعلم صلى الله عليه وسلم، فلن أعدو شاطئه فضلاً عن بلوغ لُجّته، ولن أستطيع الوقوف على بالغ حكمته ولا الأخذ بكامل عُدّته، وإنّما أقتصر على قول الشاعر وأكتفي بالبيت السّائر:

نفسي تَرُوم أمُورًا لستُ مدرِكَها
ما دمتُ أحذَرُ ما يأتي به القدرُ

لقد كان الجواب على هذا السُّؤال الجلل، كلامًا يلبس أجمل وأفضل الحُلل، وسياقًا موجزًا يُعدّ على الأصابع ويحفظه الجَنان لأوّل وهلة، ولِم لا يكون كذلك وقد خرج من أشرف فم وممّن أوتي صاحبُه صلى الله عليه وسلم جوامعَ الكلم، وخُصّ ببدائع الحِكم.

لم لا أُعرِّضُ باسم عَزّةَ إنها
أخذتْ عليَّ مواثقًا وعُهودا
لو يسمعون كما سمعتُ كلامَها
خرّوا لعزّةَ رُكّعًا وسُجودا

جمع صلى الله عليه وسلم أسباب النجاة، وحدّد أُسس الحياة، وأجملها في جُمل ثلاثة ما أجمَلها، "أمسك عليك لسانك، وليَسَعْك بيتُك، وابكِ على خطيئتك".

جوابٌ يُسمع الصمّ ويُنزل العُصم:

كان في جوابه صلى الله عليه وسلم فصاحة الألفاظ، وبلاغة العبارة، مع إيجاز فصوله، وانعدام فضوله، إذ إنه جوابٌ مختارُ الكلمات نيّرُ القسمات:

كأن هذا الجواب من جماله وجلاله يقول: سلوني أجبْكم واسمعوا أعجبْكم، ومن عجيب هذا الجواب أنّ عباراته الثلاث وإن كانت كادّةً للقلب، شاقّةً على اللبّ إلا أنها في الإمكان مع المجاهدة في العزلة والاكتنان، فمن جعلها مثابة واتخذ منها صحابة، وجعلها لنفسه في الدار كحاشيتي النهار؛ فقد حلّ من عُقدتها الأزرار وفكّها من قيد الأوزار؛ فاحذر في هذا الزمان من رفيق يكون عدوًّا في بردة صديق، ليس له همة إلا في فائدة منك يُفيدها أو عائدة يصيدها.

ويحك هذا الزمان زورُ
فلا يغرنك الغرورُ
لا تلتزم حالةً ولكن
دُرْ بالليالي كما تدورُ

ثلاثة جمل ما أجملها:

هذه الجمل المجملة والعبارات المحلّلة (أي: التي ألبستْ أجمل الحُلل) بأثواب محبرة، ومعان مقررة، لو أخذ عالمٌ أصنافها وصنّفها، وجمع أنواعها وصففها لجاءت في كتاب يجمع من كل شيء أحسنه، ومن كل نوع أجوده، ففوائدها أكثر من أن يحيط بها محيط، أو يقف على عدّها واقف؛ وحسبُك في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم جمع أسباب النجاة، وحدّد أُسس الحياة، وأجملَها في جُمل ثلاثة ما أجْملها، "أمسكْ عليكَ لسانَك، وليسعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتك" (صحيح الترمذي ٢٤٠٦).

ولم يَبْق بعد هذا الوضوح في جوابه، والبيان في خطابه إلا الاستعانة بالله تعالى وحده ولو كنت فردًا غير معان من رفيق أو أخ أو صديق، ولُزوم الوُقوف على بابه، والجُلوس على أعتابه،

مع خُضوع الرِّقاب والشَّوْق المُحرِّك للقاء أفْضل وأقرَب الأحْباب، مع الجِدِّ في الوصول ومُحاولة بُلوغ المأرب المأمول، ولا تنس أنَّك في زمان الصِّعاب وغَليان الصُّدور، وتأجُّج القُلوب، وغلَبة دُخان الفتَن، وعُلوَّ غُبار المِحن عليها حتى كاد أن يخنُقَها، فاللهم نجنا وعافنا وسلِّمنا وغنِّمنا وأنت أكرم الأكرمين.

تركتم قِدْركم لا شيءَ فيها
وقِدْرُ القوْم حامِيةٌ تَفُورُ

والله المستعان على تحقيق الحق وقول الصدق بِمَا أطْلق به ألْسنتَنا وأجْرى به أقْلامَنا، ونسأل الله النَّجاة من هذه الفتَن التي يُرقِّق بعضُها بعضًا:

نقض قانون النجاة:

فيا أخي الكريم خُذْ بقاعدة النجاة، واجمع لها حواشيَ الإزار، كي تتنزَّه عن كُلِّ هذه الأقذار، فإنَّ الأيام التي نعيشها تُنذرُ بشرٍّ ولا تكاد تُعين على خيْر.

أرى الأيامَ لا تُبقي على حالٍ فأحْكيها
فيوْمًا شرُّها فيَّ ويومًا شرَّتي فيها

ومن تأمَّل أحْوال النَّاس وجد الكثيرين قد ناقضوا قانون النَّجاة، وحلوا رباطها الأصيل، بل بعضهم اجتثُّوا أصْله، وتركوه بلا قرار.

مع أنه قد كان بالإمكان أن يحصِّنوا حوزتها – أي النَّجاة– ويصونوا حُرْمتها، ويحموا حومتها، ليكونوا أهْدى سبيلًا، وأقوم قيلًا، وأصح تفريعًا وتأصيلًا.

وهذه القضية -أي: قضية النجاة- قد-والله بحقٍّ- بُحَّ من أجلها الحلْق بغية تحصيلها، وضاق الصدر من أجل بلوغ تحقيقها، واعتقل اللسان فلم ينطلق. فالله الله في هذا الأمر، وعليكم بجبر كسره، وجلوة صدئه، ودعكم من التَّعليل الذي لا جدوى من ورائه، والتسويف الذي لا نفع معه.

وإنَّ من مذاهب الكرام الأخْذ بالزِّمام وحفظ الذَّمام، والمُراد بذلك أن يأخذ المَرء بزمام نفسه ليحفظ ذمامها، ولا يكون ذلك إلا من كريم ماجد، ومُفضل مُحْسن رائد.

فالعاقل من يجيل يده في هذه العبارة بالعمارة، ومن يوقف نفسه عليها، ويتخذ العمل بها تجارة، قال تعالى: "يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ⑩ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ" (الصف: ١٠-١١).

الأخذ بالزِّمام:

إذا أجَلْتَ طَرْفك في هذه الإشارات العالية المباني الوافية المعاني، وطوَّفت في هذه الكلمَات القليلات العدد الكثيرات العدد: انفتح بصرُك، وتفتَّقت بصيرتك عن الأخْذ بالزمام في قوله عليه الصلاة والسلام: "أمسك عليك لسانك".

ومن الكلمات الجارية قولهم: من ملك الزمام فقد بلغ التَّمام، ومن تأمَّل حال زماننا ضلَّ وحار، ولم يأمن الوقوع في الزلل والعثار؛ لأنه لا يكاد يجد من يأخذ بالجِدِّ الصِّرف غير المَمْزُوج باللَّعب، ولا من يجتهد الاجتهاد المَحْض غير المخلوط السَّلب.

إنَّ من أخذ بهذه الجُمل الثلاث، وتأمَّلها بنافذ الفهْم، وعلم ما فيها من التَّفسير، وبلغ شيئًا من كُنه المُراد من هذا التَّعبير تحقق بأسباب النَّجاة، وتخلَّق بأخلاق أهلها الجادين السَّعاة.

أما ترك النَّفس بلا خطام ولا زمام فإنَّما هو من أفعال السَّفلة الجُهَّال، وأوصاف ذوي النذالة والسفال؛ لأنهم بذلك يُوردونها مواطن الهلكة، وينزلونها منازل العطب، ويشترون ذلك بثمن بخس، وعرض زائل وحال حائل، وبضاعة رخيصة تحمل كل نقص ونقيصة، وليس في الظفر بها خصيصة، وهذا عنوان على الخَيْبة ودليل على الضَّيْعة، وصدق الله تعالى حين قال: "قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا" (الشمس: ٩-١٠).

حفظ الذِّمام:

هو أن لا يأتي شيئًا ينقص من مروءته وقدره، ولا يفعل عيبًا يحط من شأنه وأمره؛ وحفظ الذمام في الشر يكون بعقد عقدة الاعتقال، وفي الخير يكون بإطلاق العنان والعقال، فهو طليق في الخير، ومغلول اليد في فعل الشرِّ.

ومن تأمل السؤال والجواب في هذا الحديث الوجيز وجد في السُّؤال طلبَ الغاية والوصول إلى النهاية، كما يجد في الإجابة أيضًا الجواب الكافي والدواء الشافي.

وللحديث بقية إن شاء الله، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مصادر المعرفة في الإسلام

إعداد **د. أحمد منصور سبالك**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أيها القارئ الكريم:

فما زال الحديث بنا مستمرًا حول قانون المعرفة الإسلامي، وموعدنا اليوم في الكلام على مصادر المعرفة في الإسلام.

فأول هذه المصادر وأصلها الوحي:

أولا: تعريف الوحي:

تكلم أهل اللغة عن الوحي ومعناه في اللغة العربية كثيرا، ومنهم: ابن منظور في اللسان قال: «الوحي: الإشارة، والرسالة، والإلهام والكلام الخفي».

وقال الأزهري في التهذيب وغيره: تعددت معاني الوحي اللغوي على أكثر من معنى، لكنها تدور على أصول ثلاثة: الإعلام- السرعة- الخفاء.

ولهذا قال الأزهري: أصل الوحي في اللغة كلها: إعلام في خفاء ووجدنا هذه المعاني في القرآن أيضًا.

فالإلهام جاء في وحي أم موسى عليه السلام، والإشارة جاء في وحي زكريا عليه السلام لأهله، والإعلام جاء في الوحي إلى النحل، إلى غير ذلك من المعاني التي وردت في القرآن لمعنى الوحي في اللغة العربية.

أما في الشرع: فقد وردت آية الشورى لتوضح هذا المعنى بجلاء لا خفاء فيه: حيث قال تعالى في الآية: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ» (الشورى: ٥١).

وقد ذكر شيخ الإسلام في تفسير الآية قوله: «نزلت الآية تعم من أوحى الله إليه من البشر، فكلام الله تعالى الذي كلم به موسى من وراء حجاب، والوحي ما يوحي الله إلى نبي من أنبيائه"، ثم ذكر رحمه الله تعالى أيضًا: "وهو كلام الله ووحيه، ومنه ما يكون بين الله وبين رسوله، ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ولا يأمرون بكتابته، ولكنهم يحدثون الناس به ويبينونه لهم، لأن الله أمرهم أن يبينوه للناس».

ثم ختم بقوله: «ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته فيكلمون به أنبياءه من الناس، أو يوحيه وحيا بواسطة الملائكة في قلب من يشاء من رسله».

فمن ينظر إلى هذا التعريف الشرعي للوحي يراه شاملا الآتي:

أولا: كلام الله تعالى لأنبيائه من وراء حجاب.

ثانيا: كلام الله تعالى الذي يرسل به ملائكته.

ثالثا: الإلهام الذي يلقيه الوحي في قلب النبي.

ولكي يتضح الوحي أكثر نستطيع أن نقول:

المعنى الشرعي للوحي قد يكون تكليمًا أو إلهامًا، كما أنه قد يكون بواسطة أو بغير واسطة؟ ولهذا لا بد من بيان وتفصيل أمرين:

الأول: كلام الله تعالى.

الثاني: حقيقة الإلهام والفارق بينه وبين الكلام.

أما الأول فنقول:

كلام الله تعالى صفة من صفاته يتكلم بما شاء كيف يشاء وقتما يشاء، يتكلم إلى أنبيائه بواسطة الملك حين يسمعه من الله، ثم يبينه إلى أنبيائه، وقد يكون بغير واسطة حيث يسمع النبي كلام الله مباشرة من وراء حجاب، ففي الواسط قال تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ» (الشعراء: ١٩٢، ١٩٣).

وفي غير الواسطة قال تعالى: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا» (النساء: ١٦٤).

وكما في حديث الإسراء والمعراج من نبينا صلى الله عليه وسلم.

وبهذا نستطيع القول بأن درجة التكليم أرفع درجات الوحي، ويشترط أن يكون الكلام مسموعًا حتى يكون

مفهومًا؛ إذ لا مفهوم للكلام إلا إذا كان بصوت، ولا يلزم التشابه في ذلك مع الخلق؛ لأن التشابه يلزم تصور الصفة ثم تصور الصفة يلزم تصور الموصوف، وهذا محال في حق الله تعالى.

فكلام الله تعالى كلام مسموع، وإلا لم يكن متكلمًا على الحقيقة؟ إذ لا مفهوم للكلام إلا إذا كان بصوت، ولا يلزم من ذلك التشابه بين الله تعالى وبين خلقه، بل إن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله.

وهذه الحقيقة من أهم المهمات في قضية الوحي ومجالاته، والاستدلال عليها ورد ما علق بها من شبهات؛ فقد ورد التصريح بإضافة الصوت إلى الله تعالى في النصوص، وورد في نصوص أخرى ما يستلزم إضافة الصوت كإضافة النداء ولا يمكن للنداء إلا بصوت.

مما يقطع في الدلالة على أن الله يتكلم بصوت مسموع كما في قوله تعالى في الأعراف: «وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا» (الأعراف: ٢٢). وفي مريم: «وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ» (مريم: ٥٢).

وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إن الله إذا أحب عبدًا نادى جبريل إن الله أحب فلانًا فأحببه.....».

وقد ثبت الصوت في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند البخاري أيضًا قال: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات شيئًا، فإذا فزع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق، ونادوا ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق».

ورغم هذا وغيره ينفي المتكلمون الكلام المسموع عن الله تعالى، وأن الكلام بصوت هو من مخلوقات الله وليس من صفاته، لكن هذا ينتج إشكالا لا حل له عندهم، وهو كيفية تلقي جبريل عليه السلام ألفاظ القرآن عن الله تعالى؟!

فالبعض يقول: بأنه مخلوق على اعتبار أن صفة الكلام ليست من صفات الباري بل من أفعاله، وبعضهم اضطرب اضطرابًا شديدًا إذ حاول التوفيق بين أصلين متناقضين وهما إثبات صفة الكلام مع القول بعدم إحكام قيام الصفات الاختيارية بالله تعالى، فانتهوا إلى ما قال به الفريق الأول، وبالغ البعض وقالوا هو كلام نفسي يمكن أن يكون مسموعًا بغير صوت، وهذا يستلزم أمورًا أكبر مما حاولوا البعد عنه، فقال عنه: مجرد معنى قائم بالنفس، ونفوا كلامه أن يكون بصوت مسموع، وهذا غير ممكن وغير معقول.

وأما الأمر الثاني: وهو الإلهام:

هناك فارق بينه وبين كلام الله تعالى، فكلام الله تعالى يكون بحرف وصوت مسموع، أما الإلهام فإنما يكون بإلقاء في القلب يقتضي معرفة يقينية مع الجزم، بأنها من قبل الله تعالى، وقد يكون هذا الإلقاء بواسطة ملك، وقد لا يكون.

وما يكون به الوحي بطريق الإلهام أنه يحصل في حالتي النوم واليقظة بخلاف الوحي بطريق التكليم فإنه يكون في حالة اليقظة فقط؟ لأنه لا بد أن يكون بصوت مسموع، ولا يكون هذا إلا يقظة.

وأما النائم فلا يسمع الصوت لكن يعقل معناه في حال نومه، فالإلهام يتوقف على ما يُلقى في القلب سواء كان من الله تعالى مباشرة بلا واسطة، أو عن طريق واسطة ملك الوحي، ومن ذلك رؤيا إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، فأقدم نبي الله إبراهيم عليه السلام بما أمر مباشرة؛ لأنها رؤيا وحي فرؤيا الأنبياء حق، لأنها وحي من الله تعالى مباشرة أو بواسطة ملك الوحي.

ونعلم أن الوحي لغير الأنبياء ممكن، والنصوص دلت على ذلك ففي حديث مسلم: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر بن الخطاب»، وإذا كان المحدث هو الملهم فأمكن حصول الإلهام لغير الأنبياء، وعند البخاري: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة».

بل وورد في القرآن ما يدل على ذلك، كقوله تعالى في القصص: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ» (القصص: ٧)، وفي المائدة: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ» (المائدة: ١١١).

ومعلوم أن أم موسى والحواريون ليسوا من الأنبياء.

ورغم كل ذلك نرى اختلاف البعض في حجَية الإلهام للأنبياء وغيرهم فاعتبرت الصوفية الإلهام حجة مطلقة، واعتمدوا في ذلك على الكشف والرؤى دون تمييز بين إلهام يختص بالأنبياء، والإلهام لغيرهم، وجعلوا ذلك أصل طريقتهم ومصدر تقلبهم، حتى صرح الإمام الغزالي في الإحياء بأن النصوص الشرعية لا تقبل إلا إذا وافقت الكشف، وأما إذا خالفته فلا بد من تأويلها.

وكل هذا وغيره مبني على أساس أن كلام الأولياء إلهام من الله تعالى فلا يمكن أن يقع فيه الخطأ، حيث لا تفريق عندهم بين ما يختص بإلهام الأنبياء وما يقتضيه من الحجية المطلقة، وبين إلهام غيرهم الذي لا تكون فيه الحجية المماثلة لما هو في إلهام الأنبياء وهذا هو التوسط والاعتدال في حجية الإلهام، لانتفاء العصمة عن غير الأنبياء، فليس كل ما يقع في القلب إلهام من الله تعالى يقتضي الحجية والعمل به.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه وسلم.

الهجرة هجرتان

إعداد د. ياسر لمعي عبد المنعم
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
المساعد بجامعة غينيا العالمية

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستهديه، ونستلهمه سبحانه الرشد والصواب، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد: فعندما نسمع كلمة الهجرة ينصرف الذهن لهجرة النبي، صلى الله عليه وسلم، وهذا منها إذ إن الهجرة أعم من ذلك.

فالهجرة: من الهجر ضد الوصل. والهجرة مفارقة أرض إلى أرض. وهجرت الشيء إذا تركته.

وأما الهجرة في الاصطلاح: ترك دار الكفر إلى دار الإسلام. وقال ابن حجر: "ترك ما نهى الله عنه".

بل قل إن شئت الهجرة هجرتان: وذلك لقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام، رحمه الله: "الهجرة هجرتان: هجرة الأوطان، وهجرة الإثم والعدوان. وأفضلهما هجرة الإثم والعدوان؛ لما فيها من إرضاء الرحمن، وإرغام النفس والشيطان".

وعليه فيظهر تقسيم للهجرة ألا وهو: هجرة الأوطان بالأبدان وهجرة القلوب والأبدان للآثام.

أولاً: هجرة الأوطان:

أما عن هجرة الأوطان فحدث عنها كثيراً، فقد يهاجر الشباب طلباً للرزق، أو طلباً للجنسية، أو طلباً للزواج، أو طلباً للغربة، وهذا مباح بضوابطه غير أني لا أحبذه لما فيه من غلبة الضرر والإزهاق المحتمل للنفس. ولن نقف معه كثيراً إنما الوقوف سيكون مع الهجرة الأشرف وهي الهجرة إلى الله ورسوله، وتنقسم إلى نوعين من الهجرة، هجرة بالبدن وقد ذهب وقتها بوفاة النبي، صلى الله عليه وسلم، ففي البخاري من حديث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: "إنما الأعمال بالنيَات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه" (رواه البخاري).

فالهجرة التي ذهبت هجرة أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، للحبشة في رجب من العام الخامس للبعثة وكانوا -كما ذكر ابن كثير- أحد عشر رجلاً وأربع نسوة وهم: عثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت محمد، أبو حذيفة بن عتبة، وامرأته سهلة بنت سهيل، الزبير بن العوام، مصعب بن عمير، عبد الرحمن بن عوف، أبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية، عثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة العنزي، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، أبو سبرة بن أبي رهم، حاطب بن عمرو، سهيل بن بيضاء، عبد الله بن مسعود.

أما الهجرة الثانية في عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، كانت على بعض الأقوال في نفس العام أذن لهم النبي في الخروج إلى الحبشة مرة ثانية، فخرجوا، وكان عددهم في المرة الثانية ثلاثة وثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة، وقيل: ثماني عشرة امرأة، وقال الطبري، رحمه الله: كانوا اثنين وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم، وشك في عمار

بن ياسر، رضي الله عنه، هل كان فيهم وبه تتكمل العدة ثلاثة وثمانين، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، فكان هو المقدم عليهم.

أما الهجرة الثالثة فقد كانت في العام الثالث عشر، وبعضهم قال في أوائل العام الرابع عشر من البعثة حيث أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، أصحابه بالهجرة خفية بأمر الله ثم تجهز ينتظر الأمر الرباني بهجرته هو وصاحبه للمدينة فقد كان وهاجر، صلى الله عليه وسلم، وما كان من أحداث الكل يعلمها في هجرته فتمت الهجرة في عهد النبي، صلى الله عليه وسلم. وهي: هي ترك دار الكفر التي لا يقدر المسلم على إظهار دينه فيها، والانتقال إلى دار الإسلام، وقد هاجر أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- كما سبق ذكره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قال تعالى: « يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ » (العنكبوت: ٥٦).

قال ابن كثير رحمه الله: "هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم".

ففي مسند أحمد وسنن النسائي، من حديث الحارث الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ».

قال تعالى: «وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا » (النساء: ١٠٠).

ولما عاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة فاتحاً في العام الثامن للهجرة قال-كما في البخاري من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استُنفرتم فانفروا". وعليه فقد أصبحت مكة دار إسلام، ومات رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهاجر إليه من هاجر ورضي الله عن أصحابه الغر الميامين.

ثانيا: هجرة الآثام والعدوان

أما في أيامنا فأصبحت الهجرة بالقلب لله ولرسوله، والبدن تابع للقلب وذلك بترك ما نهى الله عنه، وكف الأذى والتوبة الصادقة، وهذا يظهر في قوله، صلى الله عليه وسلم، في البخاري أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه".

والهجرة ضربان:

ظاهرة وباطنة: فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان. والظاهرة: الفرار بالدين من الفتن، وحقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه. فاشتملت هاتان الجملتان على جوامع من معاني الحكم والأحكام.

والمراد بالناس هنا: المسلمون؛ كما في الحديث الموصول. فهم الناس حقيقة عند الإطلاق؛ لأن الإطلاق يُحمل على الكامل، ولا كمال في غير المسلمين.

كذا من الهجرة هجرة أرض السوء وصحبة السوء كما في حديث قاتل المائة نفس كما هو متفق عليه.

انظر إلى قاتل المائة نفس، قتل تسعة وتسعين نفساً، كانت عائقاً أمامه عن دنيا يصيبها، ثم أتمهم مائة بمن كان عائقاً أمامه عن التوبة، عن الطريق إلى الله ثم قدر الله له التوبة لأنه هجر ما نهى الله عنه.

لذا الباب مفتوح، والأمر متاح ومباح، بل مستحب وواجب على كل مسلم أن يهجر ما نهى الله عنه، وفي يومنا وليلتنا كثير من المنهيات وفي حياتنا الكثير والكثير منها ولضيق المقام أذكر لك وصايا قرآنية لعلك تقرأها وتذاكرها وتراجع أعمالك وتُذكر بها أهلك فكثيراً ما أحب أن أتناولها مع أحبابي الكرام

قال الله تبارك وتعالى: "قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ" (الأنعام: ١٥١-١٥٣).

والحمد لله رب العالمين.

كتاب عربي علّم العالم

الحمد لله العلي العظيم الكبير والصلاة والسلام على الهادي البشير نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن المتأمل لمجريات الأحداث، والمدرك لمفردات الزمن، لا تغيب عن ناظره تلك الصفحات المشرقة من تاريخنا المجيد، وإذا كان البشر قد سبروا أغوار البحار بما تحويه من نفائس وأسرار، فإن هناك دُرَرا لم تزل مُغيَبة في أعماق الزمن تنتظر من يُميط اللثام عن مكنوناتها، إننا نعيد كتابة الحاضر بمداد الماضي، ونكشف الستر عن جسد الأمة المُسَجي في دياجير الهوان، لنستلهم العبر ونستوثق من صحة الخبر، وحتي تبقي سنة الله الخالدة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١)، ماثلة أمام أعيننا وفي حنايا القلب لا تغادر أبدًا، وإلى أن يأذن الله بالغلبة والتمكين حريٌ بنا أن نُعيد قراءة التاريخ من جديد، نُقلب بين صفحاته ونستعرض فصوله، ونبحر من خلاله مع مشاعل الحضارة الإسلامية التي أضاءت جنبات العالم.

القانون في الطب

القانون في الطب هو موسوعة طبية تنقسم إلى خمس مجلدات ألفها العالم والطبيب والفيلسوف المسلم ابن سينا صدر عام ١٠٢٠م. يعتبر الكتاب من المؤلفات المؤثرة والمعتمدة في مجال الطب في العالم حيث اعتُمد كمرجع أساسيٍّ لتدريس الطب في الكثير من الجامعات حتى القرن الثامن عشر.

يقدم الكتاب نظرة عامة عن المعارف الطبية في عصر الحضارة الإسلامية والتي تأثرت بتعاليم الطب التقليدي عند الحضارات السابقة كالطب الروماني القديم كأعمال جالينوس والطب الفارسي القديم والطب الصيني والهندي ويتضمن شروحات عديدة كشرح علوم التشريح، شرح الأدوية والمركبات.

والمرض وكلياته وأسباب المرض والاستدلالات والمعالجات الجزئية بدواء بسيط والمركبات، وشرح الزائدة الدودية وكيفية إزالتها كما كشف ابن سينا عن العديد من النظريات العلمية والتجربية والمخبرية.

سبب تأليف الكتاب

قال ابن سينا عن سبب تأليفه هذا الكتاب: "فقد التمس مني بعض خُلص إخواني، ومن يلزمني إسعافه بما يسمح به وسعي أنِ أصنف في الطب كتابا مشتملا على قوانينه الكلية والجزئية اشتمالا يجمع إلى الشرح الاختصار وإلى إيفاء الأكثر من البيان الإيجاز فأسعفته بذلك".

ابن سينا

أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البَلخيَ ثم البُخاريَ المعروف بابن سينا، عالم وطبيب مسلم، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد في قرية أفشنة بالقرب من بخارى (في أوزبكستان حاليًا) من أب من مدينة بلخ (في أفغانستان حاليًا) وأم قروية. ولد سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠م) وتوفي في همدان (في إيران حاليًا) سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٧م). عُرف باسم الشيخ الرئيس وسماه الغربيون بأمير الأطباء وأبا الطب الحديث في العصور الوسطى. وقد ألّف ٢٠٠ كتاب في مواضيع مختلفة. العديد منها يركز على الفلسفة والطب. ويعد ابن سينا من أول من كتب عن الطبّ في العالم ولقد اتبع نهج أو أسلوب أبقراط وجالينوس. وأشهر أعماله كتاب القانون في الطب الذي ظل لسبعة

إعداد / محمد محمود فتحي

قرون متوالية المرجع الرئيسي في علم الطب، وبقي كتابه (القانون في الطب) العمدة في تعليم هذا الفن حتى أواسط القرن السابع عشر في جامعات أوروبا .

في سن العاشرة ختم القرآن الكريم وأصبح بارعا في اللغة العربية، ثم اتجه إلى دراسة الشريعة الإسلامية، والفقه، والفلسفة، والمنطق، والعلوم الطبيعية، ثم أصبح طبيبا في سن الثامنة عشر وكان قد درس الطب منذ الثالثة عشرة من عمره.

اشتهر في أوروبا بعد ترجمة أعماله إلى اللاتينية وانتشارها فيها، كما ساهم ابن سينا في مجالات عدة غير الطب من ضمنها العلوم الطبيعية ومنها: في مجال الفيزياء: قام باختراع جهاز لقياس الطول بدقة، وقام بوصف حركة الجسم، وعرف طبيعة الضوء وكيفية انبعاثه إذ اكتشف أن الضوء أسرع من الصوت، ووضح كيف يمكن للصوت أن ينتقل عبر موجات صوتية في الهواء.

في علم الفلك: اخترع جهازا لمراقبة إحداثيات النجوم، إذ اكتشف أن اضاءة النجوم ذاتية، وقام بتقديم العديد من الاقتراحات الفلكية مثل أن كوكب الزهرة أقرب إلى الشمس من الأرض.

في مجال علم النبات: قام بشرح تركيب النبات.

إنجازاته في مجال الطب

يُعتبر المجال الطبي سببا لشهرة ابن سينا، وخصوصا كتابه القانون في الطب، الذي يُعد موسوعة شاملة للمعلومات والمعارف الطبية، شرح فيه الأمراض التي تصيب الإنسان في جميع أجزاء جسمه، ومن اكتشافاته أيضا في مجال الطب ما يلي: اكتشف العدوى وفهم طبيعة الأمراض المعدية وكيفية انتقالها.

كان أول من يُميز الفرق بين الشلل النصفي الناجم عن سبب داخلي والذي ينتج عن سبب خارجي.

أول من وصف أمراض النساء كمرض انسداد المهبل، والأورام الليفية، وحمى النفاس. ووضح السكتة الدماغية. بين أثر الأمراض العقلية على سائر الجسم وأعصابه، وضرورة الخضوع للعلاج النفسي. استخدم الكي والنار لايقاف النزيف. قام بوصف ٦٧٠ عقارًا لعلاج الأمراض. وضح أثر التلوث على جسم الإنسان والأمراض التي قد تصيبه بسببه. كان له مساهمات في علم التشريح فوضح أجزاء العين بشكل دقيق.

القانون في الطب في أوروبا

ترجم جيرارد من كريمونا "القانون في الطب" من العربية إلى اللاتينية في منتصف القرن الثاني عشر تحت اسم Canon medicinae. وترجم الكتاب إلى العبرية عام ١٢٧٩م ، ظل الكتاب المرجع الرئيسي في العلوم الطبية في أوروبا حتى أواخر القرن السابع عشر.

الكتاب كان مقررا في كليات الطب في مونبلييه ولوبفن حتى عام ١٦٥٠م. أرنولد كلبس يصف الكتاب بأنه "أحد أهم الظواهر الفكرية في جميع الأوقات". وفي كلمات د. وليام اوسلر، فإن القانون في الطب "ظل الكتاب الطبي المقدس لمدة أطول من أي كتاب آخر".

الترجمة اللاتينية لأول ثلاث كتب من المصنف طبعهم جوتنبرج عام ١٤٧٢م على مطبعته التي اخترعها قبل سنوات عديدة. عاد جوتنبرج وطبع الترجمة اللاتينية كاملة في العام التالي ١٤٧٣م، يمكن الآن إحصاء ١٥ طبعة مختلفة من الكتاب نُشرت في القرن الخامس عشر فقط. وأعيدت ترجمة الكتاب بعدها ٨٧ مرة إلى اللاتينية والعبرية.

كما اختزل الكتاب ونظم شعرا فأدى ذلك إلى ظهور الأرجوزة في الطب في ١٣١٤ بيتا، وترجمت الأرجوزة عدة مرات إلى اللاتينينة خلال الفترة من القرن الثالث عشر إلى السابع عشر. والي كتاب آخر نبحر من خلاله ونرسوا علي شطآنه

والحمد لله رب العالمين.

(ليلة الزفاف)
الدخول بالعروس

إعداد **د. جمال عبد الرحمن**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله؛ وبعد:

فليلة الزفاف هي أول ليلة في البيت الجديد؛ عش الزوجية، فإذا نوى العروسان وأهلهما تأسيس ذلك اليوم على تقوى الله سبحانه، بالبعد عن المخالفات والتجاوزات وعن كل ما يُغضب الله سبحانه وما من شأنه الذهاب بالبركة؛ كان العرس مباركًا، ورجاء نجاحه وفلاحه راجحًا، وكانت الحياة سعيدة، فإن الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، والرجل الصالح يُبارَك له في الذرية، "وكان أبوهما صالحًا".

ومن الأسباب المهمة للحفظ والصيانة للعروسين: تحصينهما بذكر الله تعالى من العين والحسد، ومن نظرة شياطين الإنس والجن.

تحصين العروسين من السحر والحسد:

عن عكرمة قال: لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا فاطمة قال لعلي: «إذا أتيت بها فلا تقربنها حتى آتيك» قال: وكانت اليهود يؤخرون الرجل عن امرأته، قال: فلما أُتيَ بها قعدا حينًا في ناحية البيت، قال: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتح، فخرجت إليه أم أيمن فقال: «أثَمَّ أخي» قالت: وكيف يكون أخوك وقد أنكحته ابنتك؟ قال: «فإنه كذلك»، ثم قال: «أسماء بنت عميس»؟ قالت: نعم، قال: «جئت تكرمين بنت رسول الله»؟ قالت: نعم، فقال لها خيرًا ودعا لها، ودعا رسول الله بماء فأُتيَ به إما في تور (إناء)، وإما في سواه، قال: فمج فيه رسول الله، ومسك بيده ثم دعا عليًا فنضح من ذلك الماء على كتفيه وصدره وذراعيه، ثم دعا فاطمة فأقبلت تعثر في ثوبها حياءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم فعل بها مثل ذلك، ثم قال لها: «يا فاطمة أما إني ما أليتُ أن أنكحتك خير أهلي». (الطبقات الكبرى ٨/٢٣).

الإفضاء إلى العروس والخلوة بها

لا شك أن الزوجة حلال لزوجها وهو كذلك، وليس بين رجل وامرأة من الحل والإفضاء والنظر والاستمتاع مثل ما بين الرجل وزوجته.

عَنْ بَهْزٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ: "احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِذَا كَانَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ؟ قَالَ: "إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَلَا يَرَيَنَّهَا". قُلْتُ فَإِذَا كَانَ أَحَدُنَا خَالِيًا؟ قَالَ: "فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ" (مسند أحمد ح٢٠٠٣٤ وإسناده حسن).

(احفظ عورتك) صُنْها عن العيون (إلا من زوجتك) بالتاء لغة، وبدونها جاء القرآن، (أو ما) أي وإلا الأمة التي (ملكت يمينك) وحلّ لك وطؤها، (قيل) يعني قال السائل: يا رسول الله (إذا كان القوم) أي الجماعة (بعضهم في بعض)

كأب وجَدّ وابن وابنة أو كرجل لرجل وأنثى لأنثى؟ (قال): أي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن استطعت أن لا يرينها أحد) اجتهد في حفظها ما استطعت، وإن دعت ضرورة للكشف جاز بقدرها. (قيل): أي قلت: يا رسول الله: (إذا كان أحدنا خاليًا) أي في خلوة فما حكم ستر عورته حينئذ؟ (قال): أي رسول الله صلى الله عليه وسلم (الله أحق) أي أوجب (أن يُستحيا منه من الناس) عن كشف العورة، وهو تعالى وإن كان لا يحجبه شيء ويرى المستور كما يرى العاري، لكن رعاية الأدب تقتضي الستر. قاله المناوي مع اختصار. (فيض القدير ١/ ١٩٥).

عند إتيان الزوجة

قال بعض الكبراء: تزيين المرأة وتطيبها لزوجها من أقوى أسباب المحبة والألفة بينهما وعدم الكراهة والنفرة؛ لأن العين رائد القلب، فإذا استحسنت منظرًا أوصلته إلى القلب فحصلت المحبة، وإذا نظرت منظرًا بشعًا أو ما لا يعجبها من زي أو لباس تلقيه إلى القلب فتحصل الكراهة والنفرة، ولهذا كان من وصايا نساء العرب لبعضهن: "إياك أن تقع عين زوجك على شيء لا يستملحه، أو يشم منك ما يستقبحه".

فإذا أراد الرجل أن يأتي زوجته فقد أحل له منها وأحل لها منه كل شيء إلا اثنتان لا يفعلهما وهما الجماع في الدبر فهذا ملعون فاعله، والجماع في حال حيض المرأة وهو من الكبائر، وغير ذلك قال فيه صلى الله عليه وسلم: «اصنعوا كل شيء إلا الجماع» (رواه مسلم) يعني يُمنع الجماع أثناء الحيض، ويصنع بعد ذلك الزوج ما بدا له.

ولا يسأل أحد بعد قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اصنعوا كل شيء» عن سؤال في هذا الشأن. وليفعل ما شاء وكل ما خطر بباله طالما ابتعد عما حرمته النصوص، وما سكت عنه الشرع فلا يشدد على نفسه بالسؤال عنه، ولا ينسى مع هذا كله ذكر الله تعالى بالتسمية والدعاء الذي علمنا إياه سيد الأنبياء.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ، وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَرُزِقَا وَلَدًا لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ". (صحيح البخاري ح٣٢٧١).

كما أن للرجل أن يأتي زوجته في قبُلها من الأمام أو من الخلف لقول الله تعالى: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» (البقرة:٢٢٣).

هل يبيت أحد الزوجين جنبًا؟

عَن ابْنِ عُمَرَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عنهما: أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّهُ تُصِيبُنِي الْجَنَابَةُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَغْسِلَ ذَكَرَهُ، وَيَتَوَضَّأَ وُضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ. (مسند أحمد ح٢٦٣. وإسناده صحيح).

ومن لم يستطع الوضوء تيمم.

وبمجرد التقاء الختانين والإدخال يجب الاغتسال ولو لم يحدث إنزال. عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّجُلِ يُصِيبُ مِنَ الْمَرْأَةِ ثُمَّ يُكْسِلُ؟ فَقَالَ: «يَغْسِلُ مَا أَصَابَهُ مِنَ الْمَرْأَةِ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ، وَيُصَلِّي» (صحيح مسلم ح٨٤- ٣٤٦). والأحاديث التي لم تكن توجب الاغتسال، وتأمر فقط بالوضوء على أن الماء من الماء كلها منسوخة. ولا يجب الغسل بمجرد تلامس الفرجين، وإنما بشيء من الإدخال حتى تغيب الحشفة وهي مقدمة الذكر.

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «إِذَا جَاوَزَ الْخِتَانُ الْخِتَانَ وَجَبَ الْغُسْلُ، فَعَلْتُهُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاغْتَسَلْنَا». (سنن الترمذي ت شاكر ح١٠٨. صحيح).

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا الْتَقَتِ الْخِتَانَانِ وَتَوَارَتِ الْحَشَفَةُ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ". (مسند أحمد ح٦٦٧٠، صحيح لغيره).

وبالمناسبة يقال للمنكرين والمستنكرين لختان المرأة: إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «إذا التقى الختانان» فما المقصود بالتقاء الختانين في تلك الأحاديث؟ عرفنا أن أحد الختانين للرجل؛ فلمن الختان الثاني الذي سيلتقي مع ختان الرجل أيها الناس؟.

اغتسال الرجل مع امرأته

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ، مِنْ قَدَحٍ يُقَالُ لَهُ الْفَرَقُ» (صحيح البخاري ح٢٥٠).

وعنها قالت: كنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد تختلف أيدينا فيه من الجنابة. متفق عليه.

كيفية الاغتسال:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اغتسل من الجنابة غسل يديه، وتوضأ وضوءه للصلاة، ثم اغتسل ثم يخلل بيده شعره حتى إذا ظن أنه قد أروى بشرته أفاض عليه الماء ثلاث مرات، ثم غسل سائر جسده. وقالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد نغرف منه جميعًا". (صحيح البخاري ٢٧).

وقولها: حتى إذا ظن أنه قد أروى بشرته: يرد على أصحاب الوسواس الذين يعيدون الوضوء والغسل وسوسة وتشككا وتوهمًا، فهذا النبي صلى الله عليه وسلم إذا غلب على ظنه أنه قد أروى بشرته أفاض عليه الماء.

قالت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها: وضعتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماءً يغْتَسلُ به، فأفرغ على يدَيْه، فغسلَهُما مرَّتيْن مرَّتيْن أوْ ثلاثًا، ثُمّ أفرغ بيمينه على شماله، فغَسَلَ مذاكيرَهُ، ثمّ دلكَ يدَهُ بالأرْض، ثمَّ مضْمضَ واسْتنْشق، ثمّ غسَلَ وجْههُ ويديْه، وغسل رأْسَهُ ثلاثًا، ثمّ أفْرغ على جسده، ثمّ تنحّى من مَقامه، فغسَلَ قدَميْه. (صحيح البخاري ٢٦٥).

والغسل في الروايتين السابقتين يشمل فرائض الغسل وسننه، ويجزئ أن يكتفي المغتسل بفرض الغسل فقط، وهو إراقة الماء على سائر البدن. بمعنى أن الجنب إذا وقف تحت الماء (الدش) بنية الغسل فغمر الماء جميع جسده فقد تطهر، ويكفيه للصلاة. والمرأة مثل ذلك ولا تحتاج في غسلها لأن تنقض ضفائرها وتفككها، وإنما تخلل شعرها بالماء.

عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا رسول الله! إني امرأة أشدُّ ضفر رأسي أفأنقضها عند غسلها من الجنابة قال: إنما يكفيك أن تحثي على رأسك، ثلاث حثيات من ماء ثمّ تفيضين على جسدك (صحيح النسائي: ٢٤١).

طيب المرأة وعطرها

والمرأة تحتاج في بيتها أن تتعطر لنفسها ولزوجها، وكذلك الزوج ينبغي أن يتزين ويتعطر لنفسه ولزوجته، فلهن مثل الذي عليهن. لكن يحرم تعطر المرأة عند خروجها من بيتها ولو كان للمسجد.

عن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا استعطرت المرأة فمرّت على القوم ليجدوا ريحها فهي زانية" (صحيح الجامع ٣٢٣).

وفي رواية عنه: "أيُّما امرأة استعطرتْ ثمّ خرجتْ، فمرّتْ على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكل عين زانية" (صحيح الجامع ٢٧٠١).

قال المناوي رحمه الله: (أيما امرأة استعطرت) أي استعملت العطر أي الطيب يعني ما يظهر ريحه منه (ثم خرجت) من بيتها (فمرت على قوم) من الأجانب (ليجدوا ريحها) أي بقصد ذلك (فهي زانية) أي كالزانية في حصول الإثم وإن تفاوت لأن فاعل السبب كفاعل المسبب قال الطيبي: شبه خروجها من بيتها متطيبة مهيجة لشهوات الرجال التي هي بمنزلة رائد الزنا بالزنا مبالغة وتهديدًا وتشديدًا عليها (وكل عين زانية) أي كل عين نظرت إلى محرم من امرأة أو رجل فقد حصل لها حظها من الزنا إذ هو حظها منه وأخذ بعض المالكية من الحديث حرمة التلذذ بشم طيب أجنبية لأن الله إذا حرم شيئا زجرت الشريعة عما يضارعه مضارعة قريبة وقد بالغ بعض السلف في ذلك حتى كان ابن عمر رضي الله عنه ينهى عن القعود بمحل امرأة قامت عنه حتى يبرد أما التطيب والتزين للزوج فمطلوب محبوب. قال بعض الكبراء: تزيين المرأة وتطييبها لزوجها من أقوى أسباب المحبة والألفة بينهما وعدم الكراهة والنفرة لأن العين رائد القلب، فإذا استحسنت منظرًا أوصلته إلى القلب فحصلت المحبة، وإذا نظرت منظرًا بشعًا أو ما لا يعجبها من زي أو لباس تلقيه إلى القلب فتحصل الكراهة والنفرة. ولهذا كان من وصايا نساء العرب لبعضهن إياك أن تقع عين زوجك على شيء لا يستملحه، أو يشم منك ما يستقبحه. فيض القدير (٣/ ١٤٧). وللحديث بقية إن شاء الله تعالى

والحمد لله رب العالمين.

تحذير الداعية من القصص الواهية
الحلقة (٢٤٦)

قصة سؤال عثمان بن عفان رضي الله عنه للنبي عن مقاليد السماوات والأرض

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثة للقارئ الكريم حتى يقف على حقيقة هذه القصة التي اشتهرت على ألسنة القصاص والوعاظ، وإلى القارئ الكريم التخريج والتحقيق.

أولا: أسباب ذكر هذه القصة:

من أهم أسباب ذكر هذه القصة انتشارها في كثير من كتب التفسير، وكذلك كتب الأذكار مما أدَّى إلى اشتهارها، وعلى سبيل المثال لا الحصر الخبر الذي جاءت به القصة:

١) أورده أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة (٦٧١هـ) في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» (٨/٢٣٤) ط: دار الحديث القاهرة.

٢) وأورده أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره «الكشاف» (٤/٦٣) ط: مكتبة مصر.

٣) وأورده أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي في «تفسيره» (٤/٦٥) ط: البابي الحلبي.

٤) وأورده السيوطي في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» (٥/٣٣٤)، ط: دار المعرفة بيروت.

٥) وأخرجه الإمام الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم المتوفى سنة (٣٢٧ هـ) في تفسيره المسمى «تفسير القرآن العظيم» (١٠/٣٢٥٤) ح(١٨٤٠٥). ط: المكتبة العصرية صيدا بيروت.

إعداد **علي حشيش**

٦) وأخرجه أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المتوفى سنة (٤٢٧ هـ) في تفسيره المسمى «الكشف والبيان عن تفسير القرآن» (٨/٢٤٩) ط: دار إحياء التراث بيروت.

٧) وأورده أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة (٧٧٤هـ) في تفسيره المسمى «تفسير القرآن العظيم» (٧/١١٢): ط دار الطيبة للنشر والتعريف.

٨) وأورده الشوكاني محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني المتوفى سنة (١٢٥٠هـ) في تفسيره المسمى «فتح القدير»: (٤/٥٤٧) ط: دار ابن كثير دمشق.

٩) وأورده الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله

المتوفى سنة ١٢٧٠ه في تفسيره المسمى: «روح المعاني في التفسير القرآن الكريم والسبع المثاني» (٢٧٧/١٢)، ط: دار الكتب العلمية ببيروت.

١٠) وأخرجه الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الدينوري المعروف بابن السني المتوفى (٣٦٤هـ) في كتابه «عمل اليوم والليلة»، ح (٧٣) ط: مؤسسة الكتب الثقافية.

١١) وأخرجه الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠هـ في كتباه «الدعاء» ح (١٧٠٠)، طبعة دار المصري.

١٢) وأخرجه الإمام الحافظ أبو يعلى الموصلي أحمد بن علي بن المثنى المتوفى سنة ٣٠٧هـ في «مسنده» ح (١٦٤٧ - زائد أبي يعلى). ط: دار الكتب ببيروت.

ثانيا: المتن

رُوي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم عَنْ تَفْسِيرِ: لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَقَالَ: "مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ: تَفْسِيرُهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَبِحَمْدِهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ أُعْطِيَ سِتَّ خِصَالٍ: أَمَّا أَوَّلُهُنَّ: فَيُحْرَسُ مِنْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: فَيُعْطَى قِنْطَارًا مِنَ الْأَجْرِ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ: فَيُرْفَعُ لَهُ دَرَجَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الرَّابِعَةُ: فَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَأَمَّا الْخَامِسَةُ: فَيَحْضُرُهَا اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ مَلَكٍ، وَأَمَّا السَّادِسَةُ: فَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَمَنْ يَقْرَأُ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ، وَلَهُ مَعَ هَذَا يَا عُثْمَانُ كَمَنْ حَجَّ وَاعْتَمَرَ، فَقُبِلَتْ حَجَّتُهُ وَعُمْرَتُهُ، فَإِنْ مَاتَ مِنْ يَوْمِهِ طُبِعَ بِطَابَعِ الشُّهَدَاءِ".

ثالثا: التخريج

الخبر الذي جاءت به هذه القصة:

١) أخرجه الإمام الحافظ ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٢٥٤/١٠) ح (١٨٤٠٥) قال: حدثنا يزيد بن سنان البصري بمصر، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا الأغلب بن تميم، عن مخلد بن هذيل العبدي عن عبدالرحمن المدني، عن عبد الله بن عمر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه مرفوعًا.

٢) وأخرجه الإمام الحافظ أبو يعلى الموصلي في «المسند الكبير» ح (٣٧٠١- المطالب العالية) قال: حدثنا شجاع بن مخلد أبو الفضل، حدثنا يحيى ين حماد، حدثنا
الأغلب بن تميم، عن مخلد بن هذيل، عن عبد الرحم
المدني، عن عبد الله بن عمر عن عثمان بن عفان رض
الله عنه مرفوعًا.

فائدة مهمة في مناهج المحدثين:

هناك روايتان لمسند الإمام الحافظ أبي يعلى الموصلي

الأولى: رواية تلميذه أبي عمرو محمد بن أحمد
حمدان الحيري راوي «المسند الصغير» عن أبي يعل
وهو المطبوع الآن تحقيق حسين سليم أسد - دار المؤمن
بدمشق كما هو مبين في «مسند أبي يعلى» (١٠/١).و
يوجد به الحديث الذي جاءت به القصة.

الثانية: رواية تلميذه أبي بكر محمد بن إبراه
المصري راوي «المسند الكبير» عن أبي يعلى، وج
به الحديث الذي جاءت به القصة كما ذكرنا آنفًا
«المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية»، والذ
أضاف إليه زوائد «مسند أبي يعلى الكبير». فك
الحديث في «المطالب العالية» (١٧٨/١٥) ح (٣٧٠١)
دار العاصمة بالسعودية.

والحديث جاء أيضا في «المقصد العلي في زوائد أ
يعلى الموصلي» (٣٢٦/٤، ٣٢٧) ح (١٦٤٧) ط: دار الكت
ببيروت للحافظ الهيثمي؛ حيث اقتصر فيه على روا
أبي عمرو محمد بن أحمد بن حمدان الحيري وه
الرواية المختصرة «المسند الصغير»، وأضاف إليه زوا
مسند العشرة من الرواية المطولة التي سماها بالمس
الكبير، وهذه الإضافة كانت سببًا في وجود الحدي
جاءت به القصة بنفس السند الذي ذكرناه آنفًا
«المطالب العالية».

٣) والحديث أخرجه الإمام الحافظ ابن السني في عم
اليوم والليلة ح(٧٣) عن شيخه الإمام الحافظ أ
يعلى الموصلي فقال: «أخبرنا أبو يعلى أخبرنا شجاع
مخلد حدثنا يحيى بن حماد حدثنا الأغلب بن تم
به».

٤) وأخرجه الإمام الحافظ الطبراني في «كتاب الدعا
ح (١٧٠٠) قال: حدثنا يوسف القاضي، حدثنا مح
بن أبي بكر المقدمي، حديثنا أغلب بن تميم به.

رابعا: التحقيق

١) حكم الحافظ ابن كثير في «تفسيره» على الحدي
الذي جاءت به القصة بالغرابة. فقال عند تفسي
لقوله تعالى: «لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ» (الزمر: ٦٣
روى ابن أبي حاتم ههنا حديثًا غريبًا جدًا. وفي صح
نظر. ولكن نحن نذكره كما ذكره؛ فإنه قال: حدث
يزيد بن سنان البصري بمصر، حدثنا يحيى بن حم

حدثنا الأغلب بن تميم به. ثم ختمه فقال: «ورواه أبو يعلى الموصلي من حديث يحيى بن حماد به بمثله، وهو غريب وفيه نكارة شديدة». اهـ.

٢) نقل الحافظ السيوطي في «تدريب الراوي» (١٨٢/١): أن الإمام أحمد بن حنبل قال: «لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب؛ فإنها مناكير، وعامتها عن الضعفاء». اهـ.

وقال السيوطي: «روى ابن عدي عن أبي يوسف قال: «من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب غريب الحديث كذب». اهـ.

٣) بعد أن بينا الحكم على الحديث الذي جاءت به القصة بأنه غريب جدًا، ثم بيَنّا حكم الغرائب بأنها مناكير وعامتها عن الضعفاء، وسنطبق هذا الحكم على هذا الخبر ونبين أنه مسلسل بالعلل عن الضعفاء.

٤) الإمام الحافظ ابن أبي حاتم أخرج الخبر كما بيَنّا آنفًا في «تفسيره»، ثم أكَد على السند مرة أخرى في كتابه «الجرح والتعديل» (٣٤٩/١/٤)، فقال: «مخلد بن الهذيل العبدي، روى عن عبد الرحمن المدني، عن عبد الله بن عمر عن عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» روى عنه أغلب بن تميم». اهـ.

٥) من هذه العلل: عبد الرحمن المدني، فلقد بيّنه الحافظ ابن السني في تخريجه للحديث فقال: «عن مخلد بن هذيل، عن عبد الرحمن يعني ابن عبد الله بن عمر المدني عن عبد الله بن عمر عن عثمان مرفوعًا». ولقد بيّنه بالتفصيل الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٣٨٥٧/٢٦٧/١١) فقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب العمري أبو القاسم المدني أخو القاسم بن عبد الله العمري، سكن بغداد، روى عن أبيه عبد الله بن عمر العمري وآخرين، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: «خرقت حديثه من دهر، ليس بشيء، حديثه أحاديث مناكير، كان كذابًا». وقال يحيى بن معين: «ليس بشيء». وقال أبو حاتم: «متروك الحديث أضعف من أخيه القاسم، كان يكذب». وقال الإمام النسائي في «الضعفاء والمتروكين» (٣٥٦): «متروك». اهـ.

وقال الإمام الحافظ ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٢٥٣/٢/٢): «سمعت أبي يقول: عبد الرحمن بن عبد الله العمري متروك الحديث أضعف من أخيه القاسم؛ كان يكذب». اهـ.

وقال الحافظ ابن أبي حاتم: سئل أبو زرعة عن عبد الرحمن بن عبد الله العمري فقال: «هو متروك الحديث».

وأخرجه بسنده عن الإمام أحمد بن حنبل قال: «عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العمري ليس بشيء وقد سمعت أنا منه ثم مزقته». اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٤٨٧/١): «متروك من التاسعة». قلت: وهي الطبقة الصغرى من أتباع التابعين.

٦) العلة الثانية: عبد الله بن عمر: يتوهم من لا دراية له بالرجال أنه عبد الله بن عمر بن الخطاب الصحابي الجليل، ولكن هيهات فكما بينا آنفًا في العلة السابقة أن عبد الرحمن المدني وهو من الطبقة الصغرى من أتباع التابعين روى عن أبيه عبد الله بن عمر عن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب. فعبد الله بن عمر هذا لم يكن أبوه عمر بن الخطاب، ولكن عمر بن الخطاب جده الثالث. ولذلك ذكره الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٣٤٢٢/٣٥٣/١٠) وقال روى عنه ابنه عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر، وقال: توفي بالمدينة سنة إحدى وسبعين ومائة (١٧١ هـ). فبينه وبين الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب قرن من الزمان؛ حيث توفي الصحابي عبد الله بن عمر سنة ثلاث وسبعين (٧٣هـ). وقال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٤٣٤/١): عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب ضعيف من السابعة». اهـ. قلت: والسابعة طبقة أتباع التابعين فروايته عن الصحابي الجليل عثمان بن عفان منقطعة». وقال الإمام الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (٧/٢): فخُشيَ خطؤه فاستحق الترك. اهـ.

العلة الثالثة: مخلد بن هذيل أورد له الذهبي هذا «الخبل في الميزان» (٩٣٨٥/٨٤/٤)، وقال: «هذا موضوع، وأقره ابن حجر في اللسان» (١٢/٦) (٨٢٦٨/١٤٨٣)، وختم ترجمته بما يحقق ما قال الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (٤٣/٤): منكر الحديث جدًا. اهـ.

العلة الرابعة: أغلب بن تميم: قال الإمام البخاري في «التاريخ الكبير» (٧٠/٢/١): «منكر الحديث». اهـ.

وقال البخاري: «كل مَنْ قلتُ فيه "منكر الحديث" لا تحل الرواية عنه، كذا في «الميزان» (٦/١): ولذا فالقصة واهية والخبر موضوع باطل.

هذا ما وفقني الله إليه وهو وحده من وراء القصد.

درر البحار
في بيان ضعيف الأحاديث القصار

الحلقة (١٠٠) القسم الثاني

علي حشيش

(٨٩٢): «من قرأ «قل هو الله أحد» حين يدخل منزله نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران».

الحديث لا يصح: أخرجه الحافظ الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٤٠/٢) ح(٢٤١٩) من طريق محمد بن الزبرقان، عن مروان بن سالم، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن جرير بن عبد الله مرفوعًا، وعلته مروان بن سالم الجزري أورده الإمام الذهبي في «الميزان» (٨٤٢٥/٩٠/٤) ونقل عن الإمام أحمد وغيره: أنه ليس بثقة، وقال الدارقطني: متروك. وقال البخاري ومسلم وأبو حاتم: منكر الحديث، وقال أبو عروبة الحراني: يضع الحديث. فالحديث موضوع.

(٨٩٣): «الحمد لله رداء الرحمن».

الحديث لا يصح: أورده الإمام علي القاري في «الموضوعات» ح(١١٦) وقال: «لم يوجد له أصل». اهـ.

فائدة: الصحيح الثابت عن رب العزة: «قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منها قذفته في النار» أخرجه الإمام أبو داود في «السنن» ح(٤٠٩٠) وأحمد في «المسند» (٣٧٦/٢) ح(١٨٨١) من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة، وبنحوه رواه مسلم في «صحيحه» ح(٢٦٢٠) بلفظ: «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن نازعني عذبته». وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٦٦/١) عن رب العزة بلفظ: «الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته».

(٨٩٤): «إذا خفيت الخطيئة لم تضر إلا صاحبها، وإذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة».

الحديث لا يصح: أخرجه الحافظ الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨٧/٥) ح(٤٧٦٧) عن أبي همام محمد بن الزبرقان، عن مروان بن سالم، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا، وقال: «ولم يرو هذا الحديث عن الأوزاعي، إلا مروان بن سالم تفرد به أبو همام». اهـ. وعلته: مروان بن سالم الجزري وهو ليس بثقة، متروك، منكر الحديث يضع الحديث كما بينا آنفا؛ فالحديث موضوع.

(٨٩٥): «إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني: الفقر والجهاد».

الحديث لا يصح: أورده الغزالي في «الإحياء» (١٩٠/٤)، بصيغة الجزم مرفوعًا، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء»: «لم أجد له أصلاً». اهـ.

(٨٩٦): «أحسنوا كفن موتاكم فإنهم يتباهون، ويتزاورون بها في قبورهم».

الحديث لا يصح: أخرجه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» ح(٧٥- الغرائب الملتقطة). من طريق محمد بن الفضيل، عن محمد بن عبيد الله، عن أبي الزبير عن جابر مرفوعًا.

وعلته: محمد بن عبيد الله أورده الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٦٠٢٣/٢١/١٧) وقال: محمد بن عبيد الله بن ميسرة الفزاري روى عن أبي الزبير وآخرين، وروى عنه محمد بن فضيل بن غزوان وآخرون ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل، أنه قال: «ترك الناس حديثه». وعن يحيى بن معين قال: «ليس بشيء لا يُكتب حديثه». وعن البخاري قال: «تركه ابن المبارك ويحيى». وعن النسائي قال: «ليس بثقة». قال الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (٢٤٦/٢): «ذهبت كتبه وكان رديء الحفظ، فجعل يُحدث من حفظه ويهم فكثرت المناكير في روايته، تركه ابن المبارك ويحيى القطان وابن مهدي ويحيى بن معين». اهـ.

الحلقة (٧٤)

قرائن اللغة والنقل والعقل على حمل صفات الله (الخبرية) و(الفعلية) على ظاهرها دون المجاز

> **معتقد أهل السنة في توحيد الصفات**
> **الإمام النووي يتراجع في نهاية حياته، ويقول بقول السلف في:**
> **إثبات صفات الله الخبرية والفعلية،**
> **وإثبات الحرف والصوت في صفة كلامه تعالى**

إعداد أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فقد اضطرب المترجمون للإمام النووي- قديمًا وحديثًا - في عقيدته في الصفات، فبعضهم نعتها بأنها (أشعرية تأويلية)، ونعتها آخرون بأنها (تفويضية).

١ - مرجع اضطراب المترجمين للنووي في كونه من السلف أو الخلف

وحال الإمام النووي (ت ٦٧٦هـ) هو بالفعل- وكما هو متضح من كتاباته- كان على نحو ما فاه به المترجمون، لكن كلامهم فضلاً عن أنه يفتقر إلى الدقة، فإنه ما كان ينبغي أن يؤخذ بمنأى عن سائر أحواله، أو يُفصل عن باقي ما نُقل عنه.. وأكتفي في هذا الصدد بما قاله الحافظ الذهبي في كتابه العلو ص١٦١- وهي في مختصره ص٢٣٩- قال: "وكتاب (الإبانة) من أشهر تصانيف أبي الحسن الأشعري، شهره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه، ونسخه بخطه الإمام محيي الدين النووي".. وبنحو ذلك ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣/ ٢٢٤ ونص عبارته: "ولما اجتمعنا في دمشق وأحضرتُ كتب أبي الحسن الأشعري مثل: (المقالات) و(الإبانة)، وأئمة أصحابه كالقاضي أبي بكر وابن فورك والبيهقي وغيرهم، وأحضر كتاب (الإبانة)، وقد نقله بخطه أبو زكريا النووي، وقال فيه: فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرّفونا قولكم الذي به تقولون، قيل له: قولنا: (التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مجانبون؛ لأنه الإمام الفاضل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك

]

الشاكين)، وذكر الاعتقاد الذي ذكره في: (المقالات) عن أهل السنة" ا.هـ.

وقد أتى ذلك الاعتراف من الحافظ الذهبي وشيخ الإسلام بعد أن ساقا جزءاً كبيراً مما نسخه النووي من إبانة الأشعري، وفيه: "فإن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟، قيل له: نقول: إن الله مستو على عرشه كما قال: (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) (طه/ ٥)، وقال: (إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ) (فاطر/ ١٠)، وقال: (بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ) (النساء/ ١٥٨).. ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء، لأن الله مستو على العرش الذي هو فوق السماوات.. وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن معنى استوى: (استولى وملك وقهر)، وأنه تعالى في كل مكان، وجحدوا أن يكون على عرشه كما قال أهل الحق"..

ومما جاء في إبانة الأشعري وساقاه، قوله: "وأن له سبحانه وجهاً كما قال: (وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ) (الرحمن/ ٢٧)، وأن له يدين كما قال: (بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ) (المائدة/ ٦٤)، وأن له عينين بلا كيف كما قال: (تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا) (القمر/ ١٤)".. إلخ ما ذكراه عن الأشعري رحمه الله.

والتساؤل الذي يفرض نفسه الآن: هل يُعقل أن يخالف الإمامُ النووي أبا الحسن الأشعري إمامَ المذهب، في صحيح معتقده الذي رجع إليه واستقر عليه أمره؟!.. وهل يسوغ له أن ينقض ما خطه بيده من صحيح معتقد سلف الأمة وعلى رأسهم إمام السنة أحمد بن حنبل؟!.. وهل يمكن أن يُظن بالنووي ظن السُّوء، فيُقدم في توحيد الله في أسمائه وصفاته، مقولة الخلف على مقولة أهل الحق والسنة والجماعة المستمدة من نصوص الوحي؟!.. وأما كانت أمانة العلم تقتضي ممن ترجموا للنووي أن ينقلوا ما ذكرناه عن الحافظ الذهبي وشيخ الإسلام على النحو الذي دعاهم لأن ينقلوا عنه ما نقلوه من أشعريته؟!.

أسئلة كلها تعكس مدى تعصب من ترجموا للنووي وتغاضوا عن حقيقة ما كان عليه، لا لشيء إلا لرغبتهم الجارفة في أن ينتصروا لرأيهم القاضي بتأويل الصفات أو تفويض معانيها، والذي هو في الأصل مخالف لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام عليهم الرضوان، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢- النووي يتراجع في نهاية حياته، ويقول بقول السلف

وإن كنت لا أستبعد أن يكون النووي قد مكث ردحاً من الزمن على عقيدة التأويل، ثم تبين له خطأ ما كان عليه وجاءت بعدُ مرحلة الاهتداء والاطمئنان لما كان عليه سلف الأمة والانتصار له، بل كلام من ذكرنا من الأئمة يرجح ذلك، وإلا فما معنى كلامهم الذي سبق أن ذكرناه لهم ونقلناه عنهم؟!

ومما يؤكد ذلك ويرجحه أيضاً: أن النَّوويَّ في آخر عمره، صنَّف- فيما يبدو منه استظهار ما كان يميل إليه واستدراك ما فاته في الانتصار لما كان عليه سلف الأمة- رسالة صغيرة في إثبات كلام الله، كان قد سطرها قبل وفاته بما يقرب من أربعة أشهر، حيث انتهى من تصنيفها في الخميس الثالث من شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٦هـ، بينما كانت وفاته في الرابع والعشرين من رجب من نفس السنة، وقد ردَّ بها على الأشاعرة ومَن مشى في ركابهم، أو تعلق بفلكهم أو لف لفَّهم، وهي رسالة موسومة بـ (جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات)، قامت (دار الأنصار) بمصر بطبعها للمرة الأولى، ثم أعادت (دار ابن عباس) طبعها ١٤٢٩هـ، وهي تلخيص لكتاب فخر الدين أبي العباس أحمد بن الحسن بن عثمان الأرموي الشافعي، الذي هو بعنوان: (غاية المرام في مسألة الكلام)، وجعل النووي هذا التلخيص في القسم الأول من رسالته تلك، بينما جعل القسم الثاني منها في بعض ما تضمنه كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن).. وقد تضمنت هذه الرسالة:

أ- ذمَّ الأشاعرة صراحة؛ حيث

استغرب النووي من مذهبهم ومن قولهم في الصفات، فقال في ص ٥١ ما نصه: "والعجب أن كتب الأشاعرة مشحونة بأن كلام الله منزّل على نبيه ومكتوب في المصاحف ومتلوّ بالألسنة على الحقيقة، ثم يقولون: المنزّل هو العبارة والمكتوب غير الكتابة والمتلو غير التلاوة، ويشرعون في مناقضات وتعقبات باردة ركيكة، ويكفي في دحض هذا المعتقد كونُهم لا يستطيعون على التصريح به، بل هم فيه على نحو من المراء!".. ولمّا ذكر الإمام النووي شبهَهم التي استدلوا بها على قولهم وكانت إحداها: (أن إثبات الحرف والصوت لله مخالف لبديهية العقل ومستحيل في نفسه).. كان جوابه في ص ٥٧ قاطعاً بـ "أن مجموع ما ذكرنا من الآيات والأخبار والإجماع، صريح في مدّعانا ونص له عليه وفيه، ودعوى المجاز مردودة إذ هو خلاف الأصل، ثم كيف يُظن بالصحابة وهم أصحاب العربية وأهل اللغة تواطئهم على استعمال المجاز في صور لا تعدُّ ولا تحصى؟!". يعني: من غير قرينة.

وبعد أن رد عليهم أقوالهم قال في ص ٦٦: "ولعمري!، لقد اندفع بهذا التقرير كثيرٌ من كلام الأشاعرة وتلبيساتهم عند العارف بمعاني الكلام ودقائقه، بقي على هذا أن يقال: قد نقل عن الإمام مالك أنه قال: (ليس من السنة أن يجادل عنها، إنما السنة أن يخبر بها، فإن قُبل منك وإلا فاسكت)".

ب- تصريحه بقول السلف في صفات الرب: كالاستواء، والصوت واللفظ في كلامه عز وجل، وأن القرآن كلام الله، تلفظ به بصوت مسموع إلى جبريل عليه السلام، وغير ذلك من الصفات.. وكان مما قاله ص ٦٦، ٦٧-وقد ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٢/ ١٨-: "قد روي عن ابن عباس أنه قال: (من أخذ دينه بالقياس ذهب دهره في الإلباس، مائلاً عن المنهاج طاعناً في الاعوجاج)، وقال: (نعرف ربنا بما عرّفنا به نفسه، ونصفه بما وصف به نفسه، لا يُدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، قريب من الأشياء غير ملاصق، بعيد منها غير مفارق، تحقق بلا تمثيل، وتوحُّد بلا تعطيل)".

وبعد أن ساق النووي أدلته من الكتاب والسنة، نقل عن أئمة أهل العلم الكثير من عباراتهم، حيث نقل في ص ٧٦ عن الإمام أحمد قوله: "(لعن الله المشبهة والمعطلة)، فقيل له: من المشبهة؟، فقال: (الذين يقولون: يد كيدي وبصر كبصري)، ونقل عنه أنه قال: (من شبه الله بخلقه فهو كافر بالله العظيم)، وقال: (مذهبنا بين مذهبين وهدي بين ضلالتين، إثبات الأسماء والصفات، مع نفي التشبيه والأدوات، لا نغالي في الصفات فنجعلها أجساماً فنشبه الله بخلقه، ولا نقصر فنمحو عنه ما أثبته لنفسه، بل نقول كما سمعنا ونشهد بما علمنا)".. علق يقول: "فالتشبيه زيغ وضلال، والتعطيل كفر وابطال، والوقوف مع السلامة أسلم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم".

وكان مما رواه عن أئمة الهدى: قول "يونس بن عبد الأعلى المصري عن الشافعي، أنه قال: (نثبت هذه الصفات التي جاء بها القرآن ونثبت الصفات التي جاءت بها السنة، وننفي التشبيه كما نفى ذلك عن نفسه فقال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى/ ١١)، فنحن نصف ولا نشبه، ونثبت ولا نجسم، ونعرف ولا نكيف، مذهبنا بين باطلين وهدى بين ضلالتين وسنة بين بدعتين، وقد تفرد الله بحقائق صفاته ومعانيها عن العالم، فنحن بها مؤمنون وبحقائقها موقنون وبمعرفة كيفيتها جاهلون)".

ثم راح يذكر كلاماً واضحاً بيناً في إثبات مذهب السلف، ناصراً لهم ومؤيداً لأقوالهم، وسمى فصله الأخير الذي عقده في هذا ص٨٠: (فصل في أحاديث تؤكد القول بهذا المعتقد، وتؤيده على

هذا التنزيه الذي عليه أئمة الإسلام، حشرنا الله على معتقدهم وأماتنا على محبة السلف الصالحين والأئمة المهديين رضي الله عنهم أجمعين)، وكان مما قاله بنفس الصفحة وما تلاها: "فانظروا إلى ما كان عليه الأئمة المهديون، والفرق بينهم وبين غيرهم من المتعصبين من أهل زماننا على موافقة أغراضهم ومخالفتهم لهم، لكونهم انعطفوا على حب الدنيا وزخارفها، والتحبب إلى رؤساء أعصارهم: حملهم على هذه الأمور المستبشعة، فباعوا المقطوع بالمظنون، ونحن من ديننا: التمسك بكتاب الله عز وجل وسنة نبينا وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث المشهورين، ونؤمن بجميع أحاديث الصفات، لا نزيد على ذلك شيئاً ولا ننقص منه شيئاً، كحديث قصة الدجال وقوله فيه: (وان ربكم ليس بأعور)، وكحديث النزول إلى سماء الدنيا، وكحديث الاستواء على العرش، وأن القلوب بين أصبعين من أصابعه، وأنه يضع السماوات على إصبع والأرضين على إصبع.. وما أشبه هذه الأحاديث جميعها كما جاءت بها الرواية من غير كشف عن تأويلها، وأن نمرّها كما جاءت.. ونقول: إن الله يجيء يوم القيامة كما قال تعالى: (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا) (الفجر/ ٢٢)، وأن الله يقرب من عباده كيف شاء لقوله تعالى: (وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ) (ق/ ١٦).. وأشباه ذلك من آيات الصفات، ولا نتأولها ولا نكشف عنها، بل نكف عن ذلك كما كف عنه السلف الصالح، ونؤمن بأن الله على عرشه كما أخبر في كتابه العزيز ولا نقول هو في كل مكان، بل هو في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه مكان، كما قال: (ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ) (الملك/ ١٦)، وكما قال: (إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ) (فاطر/ ١٠)، وكما جاء في حديث الإسراء إلى السماء السابعة: (ثم دنا من ربه)، وكما جاء في حديث سوداء أريدت أن تعتق، فقال لها صلى الله عليه وسلم: (أين ربك؟)، فقالت في السماء، فقال: (أعتقها فإنها مؤمنة)، وأمثال ذلك كثير في الكتاب والسنة، نؤمن بذلك ولا نجحد شيئاً من ذلك، وقد روت الثقات عن مالك أن سائلاً سأله عن قوله تعالى: (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) (طه/ ٥)، فقال: (الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)".

وطفق- رحمه الله- يقرّ بذنبه، ويطلب من ربه المغفرة وقبول التوبة على ما فاته من صحيح الدين والاعتقاد، قائلاً: "يا إله السماوات والأرضين ويا خالق الخلق أجمعين، أنت المطلع على البواطن وأنت الرقيب على كل خافق وساكن، أسألك أن تغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم".. ثم قال كالمؤيد: "فهذا: آخر ما أردنا ذكره من هذا المختصر من معتقد مصنفه، مما ذكره في كتابه كتاب (غاية المرام في مسألة الكلام)، للشيخ أبي العباس أحمد بن الحسن الأرموي الشافعي، وهو الذي عليه الجمهور من السلف والخلف" ا.هـ

لقد أفاض الإمام النووي في الثناء على معتقد سلف الأمة، وأفاد وأجاد في الرد على الذين لا يثبتون اللفظ والكلام لله، وجاء اختصاره في عبارة سهلة سلسة، وذكر لهم عشرين وجهاً يستترون بها، ذكر أقوالهم ثم نقضها عليهم وفضح عوارهم وكشف زيفهم بعشرين حجة هي أفصح بياناً وأقوى برهاناً، مثبتاً بذلك صفة الكلام على طريقة السلف الصالح، ومثبتاً كذلك كل ما أثبته تعالى لنفسه وأثبته له رسوله من غير تأويل ولا تفويض لمعانيها، خاتماً بذلك حياته، متراجعاً من خلاله عما كان عليه من قبل.. نسأل الله حسن الخاتمة.

والحمد لله رب العالمين.

باب الفقه

صلاة الاستسقاء

الحلقة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، تكلمنا في اللقاء السابق عن معنى الاستسقاء وسببه وحكمه وصوره وقد خلصنا إلي أن الاستسقاء أنواع: الاستسقاء بخطبة وبصلاة، وهو أكملها، وصلاته صلى الله عليه وسلم مستفيضة في الصحاح وغيرها، وكذا استسقاء الإمام يوم الجمعة في خطبتها، والدعاء عقب الصلوات وفي الخلوات، ولا نزاع في جواز الاستسقاء بالدعاء بلا صلاة. ونبدأ في هذا اللقاء الحديث عن باقي آداب وأحكام صلاة الاستسقاء.

خامسا: سنن وآداب الاستسقاء:

١- إذا أصاب الناس قحط يأمر الإمام الناس بالتوبة من المعاصي، والتقرب إلى الله تعالى بوجوه البر والخير من

إعداد د. حمدي طه

صدقة وغيرها، والخروج من المظالم وأداء الحقوق؛ لأن ذلك أرجى للإجابة، قال تعالى: « وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا » (هود:٥٢).

وأخرج عبد الرزاق عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى ميمون بن مهران: "إني كتبت إلى أهل الأمصار أن يخرجوا يوم كذا من شهر كذا؛ ليستسقوا، ومن استطاع أن يصوم ويتصدق؛ فليفعل؛ فإن الله يقول: « قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ » (الأعلى: ١٤، ١٥)، وقولوا كما قال أبواكم: « قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ » (الأعراف: ٢٣).

وقولوا كما قال نوح: « وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ » (هود: ٤٧)، وقولوا كما قال موسى: « إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » سورة القصص، الآية: ١٦، وقولوا كما قال يونس: « لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ » سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

٢- يعد الإمام الناس يومًا يخرجون فيه؛ لحديث عائشة- رضي الله عنها-: "شكا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قحوط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى ووعد الناس يومًا يخرجوا فيه... الحديث" رواه أبو داود وحسنه الألباني.

وإن لم يخرج الإمام خرج الناس لصلاة الاستسقاء عند الحنفية، وإذا خرجوا، اشتغلوا بالدعاء، ولم

يصلوا بجماعة إلا إذا أمر الإمام إنساناً أن يصلي بهم جماعة؛ لأن هذا دعاء، فلا يشترط له حضور الإمام. وإن خرجوا بغير إذن الإمام، جاز؛ لأنه دعاء، فلا يشترط له إذن الإمام. بدائع الصنائع للكاساني ٢/٣٧٠.

وعند الشافعية: إن ترك الإمام الاستسقاء لم يتركه الناس محافظة على السنة؛ لأنهم محتاجون كما هو محتاج بل أشد، لكنهم لا يخرجون إلى الصحراء إذا كان الإمام أو نائبه بالبلد حتى يأذن لهم كما اقتضاه كلام الشافعي لخوف الفتنة. مغني المحتاج للخطيب الشربيني ١/٣٢٥، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للرملي ٢/٤٢٤.

وعند الحنابلة: هل من شرط هذه الصلاة إذن الإمام؟ على روايتين: إحداهما، لا يستحب إلا بخروج الإمام، أو رجل من قبله قال أبو بكر: فإذا خرجوا بغير إذن الإمام دعوا، وانصرفوا بلا صلاة ولا خطبة. نص عليه أحمد. وعنه أنهم يصلون لأنفسهم، ويخطب بهم أحدهم. فعلى هذه الرواية يكون الاستسقاء مشروعًا في حق كل أحد: مقيم، ومسافر. وأهل القرى، والأعراب؛ لأنها صلاة نافلة، فأشبهت صلاة الكسوف.

ووجه الرواية الأولى، أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بها، وانما فعلها على صفة، فلا يتعدى تلك الصفة، وهو أنه صلاها بأصحابه، وكذلك خلفاؤه ومن بعدهم، فلا تشرع إلا في مثل تلك الصفة. المغني لابن قدامة٣/٣٤٦.

٣- يخرج الإمام والناس في تواضع، وتبذل وتخشع، وتضرع؛ والأصل في ذلك حديث ابن عباس- رضي الله عنهما-: خرج رسول الله صلَى الله عليه وسلَم مُتبذِّلا، متواضعًا، متضرِّعًا، (متخشعًا، مترسلاً) حتى أتى المصلى..... الحديث" رواه أبو داود والترمذي والنسائي وحسنه الألباني.

٤- تُصلى صلاة الاستسقاء في الصحراء، وهذا هو الأفضل؛ لأن النبي صلَى الله عليه وسلَم صلاها في الصحراء لحديث عبد الله بن زيد المازني- رضي الله عنه- قال: خرج رسول الله صلَى الله عليه وسلَم إلى المصلى فاستسقى فاستقبل القبلة... الحديث متفق عليه.

وخروج الصبيان والنساء في الاستسقاء لا بأس به بشروطه، قال الإمام ابن قدامة- رحمه الله تعالى-: "ويستحب الخروج لكافة الناس، وخروج من كان ذا دين، وستر وصلاح، والشيوخ أشد استحبابًا؛ لأنه أسرع للإجابة، فأما النساء فلا بأس بخروج العجائز ومن لا هيئة له، فأما الشواب وذوات الهيئة فلا يستحب لهن الخروج؛ لأن الضرر في خروجهن أكثر من النفع، ولا يستحب إخراج البهائم؛ لأن النبي صلَى الله عليه وسلَم لم يفعله". المغني لابن قدامة٣/٣٤٦.

٥- التنظيف للاستسقاء بغسل وسواك وازالة رائحة وتقليم أظفار ونحوه، لئلا يؤذي الناس، وهو يوم يجتمعون له كالجمعة. ولا يستحب التطيب؛ لأنه يوم استكانة وخضوع، ولأن الطيب للزينة وليس هذا وقت زينة.

٦- التوسل بأهل الدين والصلاح والشيوخ والعلماء المتقين والعجائز، ويستحب أن يستسقي الإمام بمن ظهر صلاحه؛ لأن عمر- رضي الله عنه- استسقى بالعباس عم رسول الله صلَى الله عليه وسلَم، وروي أن معاوية خرج يستسقي فلما جلس على المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجرشي؟ فقام يزيد فدعاه معاوية فأجلسه عند رجليه ثم قال: اللهم إنا نستشفع إليك بخيرنا وأفضلنا يزيد بن الأسود، يا يزيد ارفع يديك؛ فرفع يديه ودعا الله تعالى فثارت في الغرب سحابة مثل الترس وهب لها ريح فسقوا حتى كادوا لا يبلغون منازلهم، واستسقى به الضحاك مرة أخرى" المغني لابن قدامة ٣/٣٤٦. فعن أنس- رضي الله عنه- أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى

الله عليه وسلّم فتسقينا، وانا نتوسل إليك بعمّ نبينا فاسقنا، قال: فيسقون". رواه البخاري.

فائدة:

قول عمر: إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم وانا نتوسل إليك بعم نبينا أننا كنا نقصد نبينا صلى الله عليه وسلم ونطلب منه أن يدعو لنا ونتقرب إلى الله بدعائه، والآن وقد انتقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ولم يعد من الممكن أن يدعو لنا فإننا نتوجه إلى عم نبينا العباس ونطلب منه أن يدعو لنا وليس معناه أنهم كانوا يقولون في دعائهم: اللهم بجاه نبيك اسقنا ثم أصبحوا يقولون بعد وفاته صلى الله عليه وسلم: اللهم بجاه العباس اسقنا لأن مثل هذا دعاء مبتدع ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة ولم يفعله أحد من السلف الصالح رضوان الله عليهم. التوسل أنواعه وأحكامه للألباني ١/ ٤٠.

ومن ذلك أيضا ما رواه الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى في تاريخه بسند صحيح أن الضحاك بن قيس خرج يستسقي بالناس فقال ليزيد بن الأسود أيضا: قم يا بكاء زاد في رواية: فما دعا إلا ثلاثا حتى أمطروا مطرا كادوا يغرقون منه. فهذا معاوية رضي الله عنه أيضا لا يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم التوسل أنواعه وأحكامه للألباني ١/ ٤١.

ويؤيده حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: "ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي صلّى الله عليه وسلّم يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب:

وأبيضٍ يُستسقى الغمامِ بوجهه
ثِمال اليتامى عِصمةٌ للأرامل

وهو قول أبي طالب. رواه البخاري.

ويستحب لكل من حضر أن يستشفع سراً بخالص عمله فهذا أدعى لتفريج الكرب، والأصل في ذلك قصة أصحاب الغار كما يرويها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم..... الحديث. رواه أحمد وأبو داود وغيرهما وإسناده صحيح وأصله في الصحيحين.

٧- استقبال القبلة ورفع اليدين في الدعاء وتحويل الإمام والناس أرديتهم في الدعاء لحديث عائشة رضي الله عنها وفيه: ثم حول إلى الناس ظهره وقلب أو حول رداءه وهو رافع يديه ثم أقبل على الناس... الحديث وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم يومًا يستسقي فصلى... ثم خطبنا ودعا الله عز و جل وحول وجهه نحو القبلة رافعا يديه ثم قلب رداءه فجعل الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن) - رواه أحمد وابن ماجه. قال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف.

٨- لا أذان ولا إقامة لصلاة الاستسقاء: وهذا ما عليه جمهور أهل العلم، قال الإمام ابن قدامة: "ولا يسن لها أذان ولا إقامة، ولا نعلم فيه خلافًا" المغني ٣/٣٣٧. لحديث أبي إسحاق قال: خرج عبد الله بن يزيد الأنصاري، وخرج معه البراء بن عازب، وزيد بن أرقم- رضي الله عنهم- فاستسقى فقام بهم على رجليه، على غير منبر، فاستسقى فقام بهم على رجليه، على غير منبر، فاستسقى ثم صلى ركعتين يجهر بالقراءة ولم يؤذن ولم يقم ". وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم يومًا يستسقي فصلى بنا ركعتين بلا أذان ولا إقامة....الحديث، وقال حارثة بن مضرب العبدي: "خرجنا مع أبي موسى نستسقي فصلى بنا ركعتين من غير أذان ولا إقامة". رواه ابن أبي شيبة .

والحمد لله رب العالمين.

مقالات في معاني القراءات

الحلقة السابعة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، فمع بعض معاني القراءات الواردة في سور الجزء الخامس والعشرين والسادس والعشرين من كتاب الله الكريم، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد: د. أسامة صابر

من سورة الشورى

قوله تعالى: (كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ) (الشورى:٣)

القراءات: قرأ ابن كثير (يوحَى) بفتح الحاء وبعدها ألف رسمت ياء، والباقون بكسر الحاء وبعدها ياء.

المعنى: على قراءة ابن كثير: كذلك يوحَى إليك يا محمد مثل ما أوحي إلى الأنبياء قبلك، أو يوحَى إليك القرآن الذي تضمنته هذه السورة، ويوقف في قراءة ابن كثير على (قبلك)، ويبتدأ (الله العزيز الحكيم)؛ كأنه قيل: من يوحيه؟ فيقال: الله العزيز. وقرأ الباقون بإسناد الفعل إلى الله عز وجل، ولذلك لا يوقف إلا على (الحكيم) حتى لا يفصل الفعل عن فاعله ولا الفاعل عن نعته (الكشف لمكي بن أبي طالب ٢/ ٣٥٢، تفسير القرطبي: سورة الشورى: ٣).

قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ) (الشورى:٣٧).

القراءات: قرأ حمزة والكسائي وخلف (كبير الإثم) على الإفراد، وقرأ الباقون (كبائر) على الجمع.

المعنى: عنى بكبير الإثم: الشرك فهو أكبر الكبائر، أو يراد به الجمع؛ لأنه مضاف أي كبير كل إثم، فتتحد القراءتان في المعنى، وقد جاءت الآحاد في الإضافة يراد بها الجمع كقوله تعالى: (وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ) (إبراهيم:٣٤). (تفسير الطبري- سورة الشورى: ٣٧، الحجة للقراء السبعة لأبي على الفارسي: ٦/ ١٣٢).

ومن سورة الزخرف

قوله تعالى: (وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ) (الزخرف: ١٩)

القراءات: قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب (عنْدَ الرحمن) وقرأ الباقون (عبادُ الرحمن)، والرسم يحتمل القراءتين.

المعنى: قراءة (عنْدَ) على الظرفية تدل على شرف منزلة الملائكة وجلالة قدرهم كقوله تعالى عنهم: (وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ) (الأنبياء:١٩)، وقوله: (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ) (الأعراف:٢٠٦).

والمعنى: وجعلوا ملائكة الله الذين هم عنده يسبحونه ويقدسونه إناثا، وعلى قراءة (عبادُ الرحمن) جمع عبد، دلالة على نفي قول من جعل الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا؛ لأنه يخبر أنهم عباده، كقوله تعالى عنهم: (بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ) (الأنبياء:٢٦)، ودعوى المشركين الباطلة تدل على جهلهم بالله وصفاته واستخفافهم بالملائكة؛ حيث نسبوا إليهم الأنوثة فجاءت القراءتان ببيان شرف الملائكة، وبنفي الولد عن الله عز وجل (البحر المحيط لأبي حيان: ٨/١٦، الكشف لمكي بن أبي طالب ٢/٣٥٨).

قوله تعالى: (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ) (الزخرف:٢٤)

القراءات: (قل أولو): قرأ ابن عامر وحفص (قـال) على أنه فعل ماض، كأن نبيهم قال لهم: أولو جئتكم، وقرأ الباقون (قُل) على أنه فعل أمر، فهو أمر من الله للنبي قل لهم.

(جئتكم): قرأها أبو جعفر (جئناكم) على الجمع، أي أنا ومن قبلي من الرسل. (معاني القراءات للأزهري ص ٤٥٩، وطلائع البشر في توجيه القراءات العشر للشيخ محمد صادق قمحاوي ص ١٦٦).

قوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ) (الزخرف:٣٨).

القراءات: (جاءنا) قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وشعبة بألف بعد الهمزة على التثنية، أي الكافر وقرينه من الشياطين المذكوران في قوله: (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف:٣٦)، والباقون بغير ألف على الإفراد، والمراد الكافر وبالإخبار عن حال أحدهما يعلم السامع حال الآخر (تفسير الطبري -سورة الزخرف:٣٨، حجة القراءات لابن زنجلة ص ٣٣٧).

ومن سورة الدخان

قوله تعالى: (ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (الدخان:٤٩).

القراءات: (ذق إنك) قرأها الكسائي بفتح الهمزة، وكسرها غيره.

المعنى: على قراءة من كسر الهمزة: أنه حكاية عما كان يقوله في الدنيا فقيل له ذلك توبيخا وتقريعا، وعلى قراءة فتح الهمزة: أنه قدر حرف جر مع (أن) على معنى العلة والتقدير ذق بأنك أو لأنك أنت العزيز عند نفسك، أو ذق العذاب بهذا القول الذي قلته في الدنيا (لطائف الإشارات ٨/٩٤، فتح القدير للشوكاني - سورة الدخان: ٤٩).

ومن الجزء السادس والعشرون

ومن سورة النجم

قوله تعالى: (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ) (النجم:١٢).

القراءات: قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب (أَفَتَمْرُونه) بمعنى: أفتجحدونه وقرأ الباقون (أفتُمارُونه) أي: أتجادلونه فيما رآه من آيات ربه (إتحاف فضلاء البشر ص ٥٢١).

قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ) (النجم:١٩).

القراءات: قرأ رويس (اللاتّ) بتشديد التاء مع المد المشبع وغيره بالتخفيف، وهو اسم صخرة عليها بيت بالطائف أو بنخلة واشتقوه من اسم (الله)، وعلى قراءة رويس كان رجلاً يلتّ السويق للحاجّ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه (تفسير الطبري- سورة النجم: ١٩) ، السويق: طعام من الحنطة أو الشعير، ولت السويق: خلطه بسمن أو غيره .

قوله تعالى: (وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) (النجم: ٢٠).

قرأ ابن كثير بهمزة مفتوحة بعد الألف (مناءة) واشتقاقها من النوء؛ لأنهم كانوا يستمطرون عندها وقرأ الباقون (مناة) واشتقاقها من مَنَى أي صبَّ؛ لأن دماء النسائك كانت تُصب عندها

وهي صخرة كانوا يعبدونها بقديد (الدر المصون للسمين الحلبي ٩١/١٠).

قوله تعالى: (وَثَمُودَا فَمَآ أَبۡقَىٰ) (النجم:٥١).

قرأ عاصم وحمزة ويعقوب (وثمود) بترك التنوين اسم للقبيلة، وغيرهم بإثباته (وثموداً) اسم للجد الأكبر أو للحى (تفسير العليمي ٤٥٣/٦).

ومن سورة الرحمن

قوله تعالى: (وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ) (الرحمن: ٢٤).

قرأ حمزة وشعبة بخلف عنه (المنشئات) بكسر الشين ومعناها: الظاهرات السير يقبلن ويدبرن، وغيرهما بفتحها وهو الوجه الثاني لشعبة ومعناها: المرفوعات الشرع أو المُجرَيات (تفسير الطبري- سورة الرحمن:٢٤).

قوله تعالى: (تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ) (الرحمن:٧٨).

قرأ ابن عامر (ذو الجلال) وكذا رسم في مصحف أهل الشام بالواو فجعل الجلال والإكرام صفة للاسم، وقرأ غيره (ذي الجلال والإكرام) على أنه صفة للرب عز وجل (معاني القراءات للأزهري ص ٥٠٠).

ومن سورة الواقعة

قوله تعالى: (إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ) (الواقعة:٦٦)

قرأ شعبة بهمزتين على الاستفهام الإنكاري، ومعناه أنهم ينكرون العذاب والهلاك الذي ينزل بهم لكفرهم، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر والمعنى: تقولون إنا لمغرمون، أي تندمون على ما سلف من ذنوبكم عند وقوع العذاب (طلائع البشر في توجيه القراءات العشر للشيخ محمد صادق قمحاوي ص ١٧٧).

قوله تعالى: (فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ) (الواقعة: ٨٩)

قرأ رويس بضم الراء، وغيره بفتحها، معنى (الرَّوح): الراحة، أي هو في راحة ونعيم، وعلى قراءة (الرُّوح): أن روح المؤمن تخرج طيبة معها الريحان وهو الطيب وجنة النعيم، أو المعنى أن المؤمن في رحمة الله فهو ذو روح وهو الحي حقًا (التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٤٧/٢٧).

ومن سورة الحديد

قوله تعالى: (يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ) (الحديد:١٣).

القراءات: قرأ حمزة (أنظرونا) بهمزة قطع مع كسر الظاء، وقرأ الباقون (انظُرونا) بهمزة وصل مع ضم الظاء.

المعنى: على قراءة حمزة من الإنظار، أي انتظرونا لنلحق بكم فنستضيء بنوركم، وعلى قراءة الباقين من نظره بمعنى انتظره كالقراءة الأولى، ويجوز أن يكون من النظر وهو الإبصار؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيضيء لهم المكان (لطائف الإشارات ٣٢٢/٨).

قوله تعالى: (إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا) (الحديد: ١٨)

القراءات: (المُصَدِّقين والمُصَدِّقات) قرأ ابن كثير وشعبة بتخفيف الصاد فيهما، وغيرهما بالتشديد.

المعنى على قراءة (المُصدِّقين) بالتخفيف من التصديق أي صدقوا الرسول وآمنوا بما جاء به، كقوله تعالى: (والذي جاء بالصدق وصدّق به)، وعلى قراءة التشديد من الصدقة والأصل (المتصدقين) وأدغمت التاء في الصاد للتخفيف وهو مناسب لقوله (وأقرضوا الله) (لطائف الإشارات ٣٢٤/٨).

قوله تعالى: (لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ) (الحديد:٢٣).

القراءات: (آتاكُمْ) قصر الهمزة أبو عمرو ومدها غيره.

المعنى: على قراءة أبي عمرو (أتاكم) من المجيء وهو مقابل لقوله (فاتكم) أي: لا تفرحوا بما جاءكم، وعلى قراءة (آتاكم) من الإعطاء، وفي الآية نهي عن الفرح الموجب للبطر والفخر على الناس. (الكشف ٤١١/٢).

وللحديث صلة.

والحمد لله رب العالمين.

دراسات قرآنية

الأمثال في القرآن

تمثيل المشركين بالأنعام

إعداد مصطفى البصراتي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

ففي هذا العدد نتكلم عن مثل من الأمثال القرآنية وهو في سورة الفرقان الآية (٤٤) قال تعالى: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (الفرقان: ٤٤).

المعنى الإجمالي

شبَّه الله تعالى أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلاً من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالاً، والأكثرون يدعونهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون، ولا يفرَقون بين ما يضرَهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرَق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره، والله سبحانه وتعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضلَ من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل له أضل وأسوأ حالاً ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه. (إعلام الموقعين (٢٨١/٢)، والصواعق (٢١٥/١) لابن القيم).

معاني المفردات

«أَمْ تَحْسَبُ»: أتظن يا محمد صلوات الله وسلامه عليك.

«أَنَّ أَكْثَرَهُمْ»: أكثر هؤلاء المشركين.

«يَسْمَعُونَ»: ما يتلى عليهم، فيعون.

«أَوْ يَعْقِلُونَ»: ما يعاينون من حجج الله فيفهمون.

«إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأنعام»: ما هم في الانتفاع بما يسمعونه إلا كالأنعام التي هي مسلوبة العقل والفهم.

«بَلْ هُمْ أَضَلُّ»: من الأنعام.

«سَبِيلاً»: أي طريقًا. (معاني المفردات مستفاد من: تفسير الطبري، وتفسير فتح البيان لصديق حسن والموسوعة القرآنية).

المعنى التفصيلي

قال تعالى: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (الفرقان: ٤٤).

قال الطاهر بن عاشور: انتقال

عن التأييس من اهتدائهم لغلبة الهوى على عقولهم إلى التحذير من أن يظن بهم إدراك الدلائل والحجج؛ وهذا توجيه ثان للإعراض عن مجادلتهم التي أنبأ عنها قوله تعالى: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا» (الفرقان: ٤٢). فـ «أم» منقطعة للإضراب الانتقالي من إنكار إلى إنكار وهي مؤذنة باستفهام عطفته على الاستفهام الذي قبلها.

والتقدير: أم أتحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون.

والمراد من نفي «أنَّ أكثرهُمْ يسْمَعُون» نفي أثر السماع وهو فهم الحق لأن ما يلقيه إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرتاب فيه إلا من هو كالذي لم يسمعه. وهذا كقوله تعالى: «وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ» (النمل: ٨٠). وعطف «أوْ يعقلون» على «يسْمعُون» لنص أن يكونوا يعقلون الدلائل غير المقالية وهي دلائل الكائنات قال تعالى: «قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ» (يونس: ١٠١). وإنما نفى فهم الأدلة السمعية والعقلية عن أكثرهم دون جميعهم، لأن هذا حال دهمائهم ومقلديهم، وفيهم معشر عقلاء يفهمون ويستدلون بالكائنات ولكنهم غلب عليهم حب الرئاسة وأنفوا من أن يعودوا أتباعًا للنبي صلى الله عليه وسلم ويتساووا مع ضعفاء قريش مثل عمار وبلال.

وجملة «إنْ هُمْ إلا كالأنعام» مستأنفة استئنافًا بيانيًا لأن ما تقدم من إنكار أنهم يسمعون يلقي في نفس السامعين سؤالًا عن نفي فهمهم لما يسمعون مع سلامة حواس السمع منهم، فكان تشبيههم بالأنعام تبيينًا للجميع بين حصول اختراق أصوات الدعوة آذانهم مع عدم انتفاعهم بها لعدم تهيئهم للاهتمام بها. فالغرض من التشبيه التقريب والإمكان. وضمائر الجمع عائدة إلى أكثرهم باعتبار معنى لفظه كما عاد عليه ضمير «يسْمعُونَ».

وانتقل في صفة حالهم إلى ما هو أشد من حال الأنعام بأنهم أضل سبيلاً من الأنعام. وضلال السبيل عدم الاهتداء للمقصود؛ لأن الأنعام تفقه بعض ما تسمعه من أصوات الزجر ونحوها من رعاتها وسائقيها. (التحرير والتنوير لابن عاشور).

وهناك تفسير للآية للعلامة الشيخ صالح بن عثيمين رحمه الله وهو يشرح تفسير الجلالين قال: قوله: «تحسَبُ» بمعنى تظن «أنَّ أكثرهُمْ يسْمعُونَ أوْ يعْقلون» يعني أنهم لا يسمعون ولا يعقلون، وما المراد بالسمع؟ المراد هنا: «سماع تفهم». وانما قيد بسماع التفهم لأنهم يسمعون سمع إدراك، لكنه لا ينفعهم؛ لأنهم لا يتفهمون، وأيضا يكون نفي السمع لانتفاء فائدته، لأن ما لا يستفاد منه كالمعدوم، فهم لا يسمعون وإن كانوا يدركون ما يقال إدراكًا حسيًا، لكنهم لعدم انتفاعهم بهذا السماع صاروا كالذين لا يسمعون.

وقوله: «أوْ يعْقلون» المراد: يعقلون كل ما ينفعهم، يعني أنهم ليس عندهم عقل لما تقول ولا لغيره، فالعقل هنا ليس العقل الذي هو الذكاء، وهو إدراك الأمور، فإنهم يعقلون بهذا المعنى، لكن المراد العقل الذي يمنع صاحبه ويعقله من التصرُّف بما لا يليق بهذا العقل الحقيقي، وليس العقل أن يدرك الإنسان المعقول فإن العقل الذي معناه أن يدرك المعقول هو مناط التكليف، وليس مناط المدح أو الذم؛ فالآن صار العقل عقلين:

أحدهما: مناط التكليف، الذي به يدرك الإنسان ويتميز عن الحيوان.

والثاني: العقل الذي هو مناط المدح، وهو الذي يمنع صاحبه مما لا يليق، والمنفي عن الكفار هو الثاني، الذي هو العقل بمعنى ما يمنع صاحبه عما لا يليق، أما الأول الذي هو إدراك المعقولات فهذا ثابت لهم، ولذلك كلفوا وخوطبوا بالشرع، ولولا ذلك لما كلفوا ولما وجب عليهم التزام الشرع.

وهل العقل الذي نفاه الله عن الكفار يقتضي نفي الذكاء عنهم؟ لا، هم أذكياء يفهمون الذي ينفعهم، ويفهمون الذي يضرهم، لكنهم ما عقلوا، يعني ما منعهم هذا العقل عما لا يليق، فلذلك صح أن نقول: إنهم لا يعقلون، فأبو جهل مثلاً عاقل بلا شك، ومن أزكى الناس وبالنسبة للعقل الذي هو محط المدح الذي يمتنع الإنسان به عما لا يليق فليس عاقلاً، ولذلك بقي على كفره، مع وضوح الأدلة والبينات على

صدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وهنا المراد بالعقل الذي نفاه الله العقل الذي يمنع صاحبه عما لا يليق.

قوله: «إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ» هذا حصر، يعني ما هم إلا كالأنعام، أي مثل الأنعام، والأنعام هي البهائم، ومن المعلوم أنك لو قلت لأي إنسان: أنت بهيمة يغضب بلا شك، فالله يقول: «إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ» أيضا لم يقل: إن هم إلا أنعام، قال: «كالأنعام»، والتشبيه يقتضي أن المشبه أقل من المشبه به، ولهذا قال: «بل هم» هذا انتقال للصريح «بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» يعني: أخطأ طريقًا من الأنعام؛ لأن الأنعام تهتدي لما ينفعها، وهؤلاء لم يهتدوا لما ينفعهم، فالأنعام إذا دعاها الراعي إلى المرعى تأتي، وإذا دعاها المحلب أتت، وإذا دعاها إلى المأوى أتت، كذلك أيضًا تنفر مما يضرها، لكن هؤلاء بالعكس، تدعوهم الرسل عليهم السلام إلى ما ينفعهم وتحذرهم مما يضرهم، ومع ذلك لا يهتدون سبيلاً، ولا ينقادون، فصاروا إذن أضل سبيلاً من الأنعام.

ولهذا بيّن الله تعالى في آيات متعددة أن الكفار شرّ البرية، شرّ ما برأ الله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ» (البينة: ٦).

وقال سبحانه وتعالى: «إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ» (الأنفال: ٥٥). يعني شرًا من الكلاب والخنازير، وقل ما يمكن أن تقول من الخسة في مخلوقات الله سبحانه وتعالى التي خلقها، فهم شرّ من ذلك، ومع هذا نجد من المسلمين الآن من يكرمهم، بل من يقدّمهم على المؤمنين، وهذه محنة عظيمة، فبهذا السبب استطال أعداء الله على المسلمين ويجترئون على سبّ نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، رأوا أنفسهم عند كثير من المسلمين محل التبجيل والتعظيم ففخروا بأنفسهم، بل أنكى من ذلك وأدهى أنهم صاروا محل التقليد عند بعض الناس، يعني يقلدونهم، ومعروف أن الإنسان إذا قلد فسوف يفخر ويرى نفسه إمامًا، وهذا في الحقيقة من سوء التصرف، ومن ضعف الشخصية، وإلا فالواجب أن ننزل هؤلاء الكفار منزلتهم التي أنزلهم الله تبارك وتعالى وألا نجعل منهم قدوة. (تفسير ابن عثيمين).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تهنئة واجبة

يسر أسرة تحرير مجلة التوحيد أن تتقدم بخالص وأصدق التهاني القلبية للباحث أحمد عبدالباسط عبدالحليم حسين بقسم الكهرباء كلية الهندسة الجامعة المصرية الصينية بالقاهرة؛ وذلك لحصوله على درجة ماجستير العلوم في الهندسة بامتياز في رسالته التي كانت بعنوان «تحسين تقنية تتبع نقطة أقصى قدرة لنظام الطاقة الشمسية».

وتكونت لجنة المناقشة والحكم على الرسالة من كلّ من:

الأستاذ الدكتور أحمد عبدالستار عبدالفتاح، قسم القوى والآلات الكهربائية، جامعة عين شمس، رئيسًا.

الأستاذ الدكتور نجار حسن سعد حمدان، كلية الهندسة جامعة عين شمس، مشرفًا.

الأستاذ الدكتور سعيد عبدالمنعم وحش، أستاذ الإلكترونيات والقوى بمعهد بحوث الإلكترونيات، مناقشا خارجيًا.

الأستاذ الدكتور هاني محمد حسنين محمد، قسم القوى والآلات الكهربائية بكلية الهندسة جامعة عين شمس، مشرفًا مشاركًا.

وأسرة تحرير مجلة التوحيد تتقدم بخالص التهنئة للباحث متمنين لسيادته مزيدًا من التقدم.

الأخلاق والقيم حصن الأمم

إعداد **الشيخ د: صالح بن عبد الله بن حميد**

خطيب المسجد الحرام

الحمد لله، أمرُه قضاء، وحكمة ورضاه أمان ورحمة، يقضي بعلمه، ويعفو بحلمه، أحمده حمدًا هو أرضى الحمد له، وأحب الحمد إليه، وأفضل الحمد عنده، حمدًا يملأ ما خلق، ويبلغ ما أراد، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة هي النجاة يوم المعاد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أشرف الخلق، وأفضل العباد، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، أهل الرشد والحكم والسداد، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم التناد. أما بعدُ: فأوصيكم-أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله-رحمكم الله-: فتقوى الله خير زاد، واعلموا أن مَنْ ملك مِنَ الدنيا ما شاء، خرَج منها كما جاء، يتواضع متواضعٌ لأنه واثق في نفسه، ويتكبر متكبر لأنه عالم بنقصه، وإذا كرهت أحدًا-يا عبد الله- فمن المروءة ألا تجعل الآخرين يكرهونه، فقد يكون الخلل منك، فدع الخلق للخالق، والسعادة-حفظك الله- تتحقق بقلب لا يحقد، ونفس سمحة سهلة، وصداقة لا تنتظر الجزاء: (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٧).

الأخلاق والقيم ركيزة البناء:

معاشر المسلمين: ركيزة من ركائز البناء الإنساني، وركن ركين في بنيان السلوك البشري، يمس جميع مظاهر السلوك في الفرد والمجتمع، ركيزة ركينة توجه السلوك إلى الخير، وتحفز إلى التلقي في مراتب الجمال والسير نحو مراقي السمو، وبها يكون السعي الصحيح إلى معالي الأمور ومحاسن الأعمال؛ إنها خصلة، بل خصال إذا سادت في الناس عاشوا في أمن واستقرار، وتكاتف وتعاون، خصال تبني الشخصية وتقوي الإرادة وتحفظ الأمن، وتقي الشرور وتصحح الأخطاء؛ تلكم هي-يا عباد الله- القيم والأخلاق، (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) (آل عمران: ١٥٩)، (وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) (الإسراء: ٥٣)، (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (الإسراء: ١٦).

خصوصية القيم الإسلامية:

معاشر الأحبة: وقيم أهل الإسلام تنبع من دينهم وعقيدتهم، والأحكام الشرعية التي تحكمهم، ونظرتهم إلى الحياة الدنيا وإلى الحياة الأخرى.

أيها الإخوة: ومن أدق التعريفات للقيم وأجملها وأصدقها أنها هي الصفات التي يحملها المرءُ ويعامل بها غيره، يقول عبد الله بن المبارك-رحمه الله-: "كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين"، ويقول الحافظ ابن رجب: "يظن كثير من الناس أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، بل قال-رحمه الله-: والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جدًا، لا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين"، ويقول الحافظ المحاسبي-رحمه الله-: "من عزيز الأشياء حسن الخلق مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة"، ويقول يحيى بن معاذ-رحمه الله-: "سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات".

أيها المسلمون: وقد جاء رجل إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وقال: "يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها، وصيامها، وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها"، قال: "هي في النار"، قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها، وصدقتها، وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال: "هي في الجنة" (رواه المنذري في الترغيب والترهيب، وإسناده صحيح).

يا عبد الله: الناس لا يرون من إيمانك ولا عبادتك إلا بما يرونه من خلقك وسلوكك وتعاملك، فالدين مقرون بالمعاملة، فقبل أن يكون المصحف في الصدر أو في الجيب، فليكن في الخلق والعمل، وقبل أن يحدث المرءُ الناس عن الدين وسماحته وكماله فليحدثهم بسلوكه وذوقه وتعامله، والمعيار الدقيق، والميزان الصادق في ذلك كله ما جاء في الخبر الصحيح، عن المصطفى-صلى الله عليه وسلم-: "أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وأن تأتي إلى الناس بمثل ما تحب أن يأتوك به".

أين الدين-رحمكم الله- من رجل صاحب عبادة: فرائض ونوافل وصدقات، ولكنه يظلم هذا، ويماطل في مرتبات هذا، ولا يؤدي حق هذا، لا يحترم الناس في مقاماتهم، ولا يقدر لهم منازلهم، يتخطاهم لوقاحته، وينظر إليهم شزرًا واحتقارًا لكبريائه.

تذكروا-رحمكم الله- حديث المفلس، الذي يأتي بحسنات أمثال الجبال وقد ضرب هذا، وشتم هذا، وأكل مال هذا، تذهب حسناته كلها ثم يلقى في النار، نسأل الله العافية.

أيها المسلمون: ويتقوى المجتمع، ويتحصن بتنشئة الناشئة على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق، وإبراز القدوات الصالحة، ينشئون في محاضن التربية في المسجد، والمدرسة، والمجتمع والإعلام والتعليم بدرجاته ومراحله.

رسالة إلى الآباء والأمهات والمربين:

معاشر المسلمين، معاشر الآباء والأمهات، معاشر المربين: علموا الناشئة أن الدين خلق كله، وأن من زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الدين، ربوهم على أن الدين في الابتسامة والسرور وليس بالجهامة والعبوس، الدين يسر، وسكينة، وطمأنينة، والتبسم صدقة وعبادة، علموهم أن يكلموا الناس ووجوههم إليهم منبسطة، بكلمات لطيفة، وعبارات رقيقة، علموهم أن صلاح القلب في سلامته من الحسد، ومن الحقد ومن الرياء والغلظة؛ ليكون قلبًا صادقًا وسليمًا، ومحبًا لكل الناس.

ربوا الناشئة على أن العبادة كما هي في المسجد فهي في البيت؛ حين تبرّ الوالديك، وتصل رحمك، وهي في الشارع حين تقضي مصالح الناس، وحاجاتهم،

وحين تُلقي السلام على من عرفت ومن لم تعرف، وفي المكاتب ومقرات العمل حين يلتزم بالنظام والتعليمات واحترام المراجعين، وفي وسائل النقل والمركبات: حين توقر الكبير وترحم الصغير، وتعطف على ذي الحاجة، وتعين الملهوف، وتساعد العاجز، وفي الأسواق، حيث الوفاء بالمكاييل والموازين، وإعطاء كل ذي حق حقه، والبعد عن الغش والتدليس والأيمان الكاذبة. علموهم أن الله وحده هو الرقيب الحسيب على عباده، فليسوا هم بأوصياء على الناس: (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ) (الأنعام: ٥٢).

بيِّنوا لهم أن من ضعف الخلق الاشتغال بعيوب الناس عن عيوبِ النفس، علموهم أن التسامح ليس ضعفًا ولا هوانًا، بل هو قوة وشهامة وعزة، ربوهم على الاعتذار عن الأخطاء، والتماس الأعذار، علموهم أن الاعتذار شجاعة، والتماس الأعذار مروءة، علموهم ثقافة الاختلاف في الرأي، وأن ما يقوله صواب يقبل الخطأ، وما يقوله صاحبه خطأ يقبل الصواب، وأن ما يراه هو خطأ لا يراه غيره كذلك، بل إنه يراه عين الصواب، علموهم أن يرفقوا بالعمال الكادحين الذين يسعون في رزقهم من الصباح الباكر، وعلموهم أن يدعوا لهم برزق واسع، وعمل كريم، وأن ييسر الله أمورهم، ويبارك لهم في أرزاقهم، وليبادروا في عونهم، والتخفيف عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ربُّوهم حينما يرون مرضى أو يمرون بمستشفى أن يدعو الله بشفاء كل مريض، ورفع البلاء عن كل مبتلى، وليواسوهم، فهذا من مكارم الأخلاق، كما أنه من أفضل العبادات.

ربُّوهم على طلاقة الوجه، والأمر بالمعروف، والعفو والجود، والصبر والرحمة والتودد ولين الجانب واحتمال الأذى، وإغاثة الملهوف، وإطعام الجائع، وكسوة العاري، والإنصاف، وقلة الخلاف ولطف الكلام، مع مَنْ عرفوا ومَنْ لم يعرفوا، ربُّوهم على احترام القريب والغريب، والأدب مع الصغير والكبير، والمشاركة في الأحزان والأفراح، وحُسن التعامل مع كل أحد، كائنًا مَنْ كان، وجِّهوهم إلى أن يبادروا للمساعدة في إحدى المشكلات والمؤازرة عند حلول المحن، والملاطفة في المعاملات، ربوهم على حفظ الوقت، وإتقان العمل، والحياء والعفة والاستقامة والفضيلة والحجاب، أعمال غير مكلفة، ولكنها أغلى من الذهب، أعمال يسيرة، ولكنها في الميزان ثقيلة، علِّموهم أن المرء يبلغ بحُسْن خلقه درجة الصائم القائم، كما صح في ذلك الحديث عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد عباد الله: فلا يستطيع مجتمع أن يعيش عيشة هنيئة ما لم تربط أفراده روابط متينة من الأخلاق الكريمة، يقول الغزالي-رحمه الله-: "الألفة ثمرة حُسن الخلق، والفرقة ثمرة سوء الخلق"، ويقول أبو حاتم: "حُسن الخُلق يذيب الخطايا، كما تذيب الشمس الجليد، وسوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل".

الأخلاق والقيم هي الرقيب الذي يدفع للعمل والشعور بالمسئولية، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (فُصِّلت: ٣٤-٣٦).

أضرار فقدان القيم على الفرد والمجتمع

أيها المسلمون: لا يكون الظلم والتظالم ولا القتل والاستبداد إلا حين تُفقد القيم، وحين تسود المصالح الضيقة، وتكون الأنانية هي الغالبة والحاكمة، كم من القتلى بسبب الأنانيات الباطلة، وكم من التدمير والتعسف بسبب الأهواء الطاغية، تذبل القيم، وتغيض الأخلاق إذا غاب التدين، وحينئذ فسوف ترى عقوق الوالدين وغشا وتضييع أوقات، ونبذ الحشمة والعفاف، سيئ الخلق يعيش أزمة قيم إيمانية لا قيم مادية، إنه يعيش الفصل بين العلم والعمل، وبين الدين والعمل، وبين الإيمان والمبادئ، فاقد القيم متذبذب مشتت. (أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (الملك: ٢٢).

ألا فاتقوا الله-عباد الله-، واعلموا أن بقاء الأمم ببقاء أخلاقها، وذهابها بذهاب أخلاقها، لم تذهب أمم ولم تدمر حضارة بسبب ذهاب ذكائها أو علومها أو قلة عددها، بل بذهاب الخصوصية الأخلاقية في الأمة؛ ومن ثمَّ سيطرة أخلاق الأمة الغالبة.

هذا وصلوا وسلموا على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، نبيكم محمد رسول الله، فقد أمركم بذلك ربكم في محكم تنزيله أمرًا كريمًا، فقال وهو الصادق في قيله: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (الأحزاب: ٥٦).

والحمد لله رب العالمين.

مفاجأة

التوحيد
أوسع المجلات
الإسلامية انتشاراً في العالم
٤٨
مجلداً
اطلبوها من باعة الصحف والمكتبات
٨ شارع قولة - عابدين ت: ٢٣٩٣٦٥١٧ - ٢٣٩١٥٤٥٦

سعر الكرتونة

٩٢٠ جنيه مصري بدلاً من ١١٧٠

هدايا
قيمة

صدر حديثًا مجلد عام ١٤٤١ بسعر ٦٥ جنيهًا للنسخة

يوجد مجلدات لسنوات مختلفة سعر المجلد الواحد ٢٥ جنيهًا بدلا من ٤٠ جنيهًا

للحصول على الكرتونة الاتصال على الأستاذ / ممدوح عبد الفتاح : مدير قسم الحسابات بالمجلة

01008618513

الموقع الرسمي والوحيد لمجلة التوحيد

www.mgtawheed.com

موقع
التوحيد
تابع مجلة التوحيد
على موقعها الإلكتروني
موقع
التوحيد
تابع مجلة التوحيد
على موقعها الإلكتروني